

التفسير التربوي

ومضات تربوية من وحي القرآن الكريم

تأليف

د. فاطمة محمد ماريديني

اعتنى به

أ. محمد ديب مليحي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبع هداهم إلى يوم الدين، وبعد:

هذه ورقات في شرح بعض سور القرآن الكريم، وقد تم التركيز فيها على موضوعات تربوية، تفيد القارئ في دينه ودنياه، ولا عجب أن الكثير من سور القرآن الكريم تفيض بالتربية، وتؤكد على الأخلاق، وذلك لأن المؤمن لا يكمل إيمانه ما لم يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، وما لم يمتنع عن إيذاء جاره، وما لم يبتعد عن الظن السيء بالآخرين واغتيالهم وزرع الفتن والبغضاء بينهم.

فالإيمان أمر عظيم جداً، تنوء بحمله الجبال وتكلّ عن حمله النفوس الخبيثة، التي تظهر عكس ما تبطن، وتترّياً بزيّ لا يليق بها، وترضى من الإيمان اسمه، ومن القرآن رسمه، وتجعله مطية للوصول إلى كل منفعة حقيرة دنيوية، دون انتظار أي عطاء أخروي، إنهم الذين قال الله تعالى عنهم:

﴿فَمِنَ النَّكَاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ

مِنْ خَلْقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

إن الناظر في سورة الحجرات وغيرها من سور القرآن الكريم، يجد أنها ترسم صورة لمجتمع مثالي، لو طبق المسلمون بعضاً من أوامرها، بدل أن يبحثوا عن تلك المثاليات في قوانين غربية، وبرامج تربوية يراد بها الوصول بالمجتمع المسلم إلى مهاوي الضلال، وتأتينا في قوالب جاهزة، بهمة المنظر، خبيثة الطعم والمحتوى، يتهافت عليها بعض المسلمين الجاهلين كالغرثي يتضورون جوعاً ويظنونها الفالودج في أواني الفيروودج.

وليت شعري صارت القوالب متعددة، والألوان مبهرة، ولا يعلم الحقائق إلا من تولاه الله تعالى بعين عنايته، وأرسل له من يدلّه على الصواب، ويرشده ليتجنب سبل العذاب.

أما عن سبب اختيار السور الكريمة (الحجرات، ق، النساء) بالذات؛ فالحقيقة انه لا يُتخير بين سور القرآن الكريم، ولكن الحاجة هي التي تحدد السورة المدروسة، فعندما يحتاج المجتمع إلى أحكام فقهية يلجأ الباحثون إلى سور فيها أحكام أكثر من غيرها، مثل (البقرة، آل عمران، المائدة....).

وعندما يتبغي العلماء التركيز على الأخلاق لإصلاح المجتمع، فلا بد من اللجوء إلى سور مثل (الحجرات، ق...) وغيرها، فالقرآن الكريم فيه الحلول لكل مشاكل الإنسان في كل نواحي حياته.

ولست أدعي أنني فسرت هذه السور الكريمة، لكنني نقلت عن المفسرين ما جادت به قرائهم، وأضفت عليها شيئاً من الدراسة والشروحات التي تناسب الواقع، وتميزت هذه الدراسة بالتبويب والتبسيط الذي يلائم الحاجة لدى القراء، للوصول إلى المعلومة بأبسط طريقة وأيسر أسلوب.

وقد اتبعت منهج الاختصار في عرض الموضوعات، وحاولت الاعتماد على الأحاديث الصحيحة ما أمكن، إلا ماندر من الأحاديث الضعيفة التي اضطررت للاستشهاد بها لعدم وجود أصح منها، وجاز لي ذلك إذ استشهدت بها في فضائل الأعمال.

واستبعدت طبعاً كل ما يروى في بعض كتب التفسير، من قصص وروايات إسرائيلية لا أصل لها ولا جدوى منها، بل الاعتماد عليها قبيح، والاستغناء عنها واجب.

وكانت خطة الدراسة كالتالي:

أربعة فصول بالعناوين التالية:

الفصل الأول: سورة الحجرات (تعريف عام).

الفصل الثاني: سورة الحجرات بالتفصيل، حيث تم شرح الآيات بالتفصيل، وإعراب الكلمات التي يشكل إعرابها، ثم الفوائد من كل مقطع من السورة.

الفصل الثالث: سورة ق، وقد تم التركيز على بعض مشاهد من يوم القيامة، بالشرح واستنباط بعض الفوائد منها دون التعرض للإعراب في هذه السورة.

الفصل الرابع: سورة النساء، نموذجاً للتفسير الإجمالي للقرآن الكريم، الذي يركز على تعداد موضوعات السورة ومقاصدها الأساسية، دون اللجوء للشرح التفصيلي، أو المباحث اللغوية بشكل عام.

وتحت كل فصل عدة مباحث، وتحت كل مبحث عدة مطالب، يأتي تفصيلها في فهرس الكتاب بإذن الله.

نسأل الله تعالى التوفيق والسداد، ونرجوه تعالى لمجتمعاتنا الإسلامية الصالحة من رقادها، والعودة لدينها وتعاليم نبينا الحبيب ﷺ، إنه على ما يشاء قدير.

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



الفصل الأول

سورة الحجرات

(تعريف عام)

المبحث الأول

مقدمة عامة عن السورة

سورة الحجرات من السور المدنية وهي على وجازتها وقلة آياتها، حيث لا تتجاوز ثماني عشرة آية، سورة جليلة تتضمن حقائق كبيرة من أمور العقيدة والشريعة، ومن حقائق الوجود البشري، وتشمل مناهج التكوين والتنظيم، وقواعد التربية والتهذيب، وأصول التشريع والتوجيه، وأسس المدنية والأخلاق، حتى لقد سماها بعضهم سورة الأخلاق، وقد جاء في السورة الكريمة خمس نداءات بلفظ الإيمان^(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وفي الخطاب بهذه الصفة وجوه من الحكم:

١- تشریفه وتكريمه سبحانه لعباده المؤمنين، فإن الوصف بالإيمان فيه شرف كبير، ولذلك وصف به سبحانه حملة العرش ومن حوله، ومدحهم بذلك، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧].

٢- تحريض للمؤمنين، وحث للاهتمام بما يليه من الأوامر أو المناهي لأن لها ارتباطاً وثيقاً بإيمانهم، فليسارعوا إلى تحقيق ذلك، ليكمل لهم إيمانهم لأن ذلك هو مقتضى إيمانهم الذي اتصفوا به، وبذلك يتبين الصادق في الإيمان من المنافق الكاذب.

تسمية السورة^(٢):

سميت السورة الحجرات لأن الله تعالى ذكر فيها تأديب أولئك الذين

(١) انظر إيجاز البيان، الصابوني (٢٠٤) وفي ظلال القرآن، قطب (٦/٣٣٣٥) وتفسير

سورة الحجرات، عبد الله سراج الدين (٥).

(٢) انظر التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/٢١٣) والتفسير المنير، زحيلي (٢٦/٢١١).

ينادون رسول الله محمدًا ﷺ من وراء الحجرات، وهي منازلها الكريمة التي كان فيها أزواجه المؤمنات الطاهرات رضي الله عنهن.

وقد أشارت إلى حادث وقع من وفد قدم على رسول الله ﷺ في عام الوفود وكانوا أعراباً جفاة كما ورد عن زيد بن أرقم^(١) ﷺ قال: «جاء ناس من العرب فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكاً عشنا في جنبه، فانطلقت إلى النبي ﷺ فأخبرته بما قالوا، ثم جاؤوا إلى حجر النبي ﷺ فجعلوا ينادون: يا محمد يا محمد»^(٢) فأنزل الله تعالى هذه الآيات لتعليم الناس محاسن الآداب تنبيهاً على قدر الرسول ﷺ المرئي والمرشد العظيم.

نزل السورة^(٣):

سورة الحجرات مدنية بالاتفاق، وهي السورة الثامنة بعد المئة في ترتيب نزول سور القرآن الكريم، نزلت بعد المجادلة وقبل التحريم، وآياتها ثمان عشرة آية. وهي (٣٤٣) ثلاث وأربعون وثلاثمائة كلمة، و(١٤٧٠) سبعون وأربعمئة وألف حرف.

مناسبة السورة لما قبلها^(٤):

تناسب سورة الحجرات مع سورة الفتح من خلال نقاط ثلاث أساسية:

(١) زيد بن أرقم: صحابي، شهد مع النبي ﷺ سبع عشرة غزوة، وله حديث كثير (٦٦) هـ، الإصابة (١/٥٤٢).

(٢) الطبراني في الكبير، باب زيد بن أرقم الأنصاري يكنى أبا عامر، (٥/٢١٠)، رقم (٥١٢٣).

(٣) انظر التحرير، ابن عاشور (٢٦/٢١٣) والبرهان، الزركشي (١/١٩٤) والإتقان، السيوطي (١٣/١ و ٢٢٦).

(٤) انظر البحر المحيط، أبو حيان (٨/١٠٥) ونظم الدرر، البقاعي (١٨/٣٥٣) وما بعدها، وتناسق الدرر، السيوطي (٧٩) ومفاتيح الغيب، الرازي (٢٨/٩٥).

١- في سورة الفتح حكم قتال الكفار، وذلك في أغلب آيات السورة، وفي سورة الحجرات حكم قتال الفئة الباغية من المسلمين: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

٢- في كلتا السورتين تشريف وتكريم لرسول الله ﷺ خصوصاً في مطلع كل منهما، والتشريف يقتضي من المؤمنين الرضا بما رضي به الرسول ﷺ وألا يتركوا شيئاً من احترامه قولاً وفعللاً مثل قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

وقوله عز وجل في الحجرات: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانْفُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١) يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٢) [الحجرات: ١-٢].

أما مناسبة سورة الحجرات مع ما بعدها (ق) فسوف يأتي عند تفسير سورة (ق) إن شاء الله تعالى^(١).



(١) ص (١٦٢) من الكتاب.

المبحث الثاني

موضوعات السورة ومقاصدها الأساسية

المطلب الأول - طاعة الله تعالى وطاعة رسوله محمد ﷺ^(١):

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانْقُؤْا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

ابتدأت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى احترام أوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ، وألا يبدوا رأياً أو يقضوا حكماً أو يرموا أمراً قبل أمر الله وأمر رسوله ﷺ، فإن ذلك من مستلزمات الإيمان وفي هذا الاستهلال فمي واضح عن مخالفة كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، والآية شاملة أيضاً ترتيب مصادر الاجتهاد، عن معاذ بن جبل^(٢) رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له حين بعثه إلى اليمن: «كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله»^(٣).

فقد أحر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة.

(١) انظر إرشاد العقل السليم، أبو السعود (١١٥/٨) والتحرير، ابن عاشور

(٢١٥/٢٦) وتفسير سورة الحجرات، سراج الدين (٧) وما بعدها.

(٢) معاذ بن جبل الخزرجي: صحابي وأعلم الأمة بالحلال والحرام، ت (١٨) ه الإصابة: (٤٠٦/٣).

(٣) أبو داود في الأفضية، باب: اجتهاد الرأي في القضاء، (٣/٣٣٠)، رقم (٣٥٩٤).

المطلب الثاني - الأدب مع رسول الله ﷺ وعدم رفع الصوت عنده^(١):

تناولت السورة أدباً آخر مع الرسول الكريم ﷺ خاصة، وهو عدم رفع الصوت في حضرته ﷺ، تعظيماً لمقامه الشريف وتوقيراً لجلالة قدره فهو رسول الله الرحمة المهداة إلى العالمين ولقد دعاهم الله تعالى بذلك النداء الحبيب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وحذرهم بذلك التحذير الرهيب: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

لقد نهي الله تعالى المؤمنين أن يبلغوا بأصواتهم وراء حد يبلغه رسول الله ﷺ بصوته، بحيث لا يكون لصوتهم الرفع والفوقية، فقال تعالى: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ٢ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ٣ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ٤ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ٥ [الحجرات: ٢-٥].

وقد تضمنت الآية الكريمة نهي المؤمنين أن يعاملوا رسول الله ﷺ في الجهر بالقول معاملة الأقران بعضهم بعضاً من حيث المساواة في أصواتهم، بل يجب الغض والخفض، والقول اللين القريب من الهمس تقيماً وتعظيماً له ﷺ، وإجلالاً لمقام نبوته الخاتمة، ورسالته العامة.

ويدخل في هذا النهي التحذير من مخاطبته ﷺ باسمه أو كنيته كما يخاطب بعضنا بعضاً، بل يجب أن يكون خطابهم له ﷺ بأوصاف التكریم

(١) انظر روح المعاني، الألوسي (١٣٤/٢٦) ومدارك التنزيل، النسفي (١٦٤/٤)، وتفسير سورة الحجرات، سراج الدين (٢٦) وما بعدها.

والتعظيم، فلا يقولوا: يا محمد، يا أحمد! بل: يا رسول الله، يا نبي الله، مراعاة لرفعة منصب نبوته وشرف رسالته ﷺ.

وإن خطابات الحق له ﷺ لم تكن إلا تكريماً له بأوصاف النبوة والرسالة ونحوهما، مما يدل على التعظيم والتكريم، فقد قال تعالى مثلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ ﴿٤٥﴾ [الأحزاب: ٤٥].

وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﷻ﴾ [المائدة: ٦٧].

المطلب الثالث - التثبت من الأخبار^(١):

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّأَ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ [الحجرات: ٦-٨].

تنتقل السورة من الأدب الخاص مع رسول الله ﷺ إلى الأدب العام مع المؤمنين، لتوجه أنظارهم إلى وجوب التثبت من الأخبار، وألا يتلقفوا الأنباء على أنها حقائق مؤكدة، فكم من كلمة سببت كارثة من الكوارث وكم من خبر لم يتثبت معه سامعه جر وبالاً وأحدث انقساماً بين جماعات المسلمين، لذلك جاءت الآيات تأمر بالتثبت من مصدر الأنباء.

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (الحجرات: ٦-٨) وتفسير سورة الحجرات، سراج الدين (٦٦) وما بعدها.

المطلب الرابع - الإصلاام بين الفئات المتخاصمة وقتال الباغي^(١):

بعد أن أمر الله تعالى بالتثبت في نقل الأخبار التي قد توقع في المخاوف والأخطار، فإن منها أخباراً صحيحة، ومنها أخباراً فاسدة، ومنها الصدق ومنها الكذب، ومنها أخباراً باطلة ذميمة يشبه أن تكون من باب النميمة، فتورث في النفوس البغضاء والحقد، وإذا استحکم ذلك قد يجر إلى القتال فيقعون في بلاء شديد، يفسد أمر العباد والبلاد، فما هو علاج هذا البلاء وكشف تلك الفتنة العمياء؟ إنه الإيمان الذي حبه الله إليهم، إذ فيه بيان كل خير، والإبعاد عن كل شر، وفيه الأمر بالتحاب، وعدم الاختلاف والتباغض، بل الواجب يفرض عليهم أن يكونوا كالجسد الواحد، مجتمعين غير مختلفين، متوادرين غير حاقدین ولا حاسدين، لذلك أمرت الآيات الكريمة بالإصلاح بين الفئات المتخاصمة، ثم بردع الظالم وكفه عن ظلمه، حتى ولو أدى ذلك إلى قتال الباغي، صيانة للمجتمع الإسلامي من عوامل التفكك والتخاصم، ودرءاً للشرور والآثام، وإقراراً للحق والعدل والسلام، يقول تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفْتِنُوا أَلَيْسَ فِي اللَّهِ فَاءٌ فَإِنَّ اللَّهَ فَاءٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ٩-١٠].

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (الحجرات: ٩-١٠) وتفسير سورة الحجرات، سراج الدين (١١٧) وما بعدها، والخلق الكامل، محمد أحمد جاد المولى (١٠٥) ودستور الأخلاق في القرآن، عبد الله دراز (٧٣٣).

المطلب الخامس - النهي عن السخرية والهمز واللمز بين المؤمنين^(١):

تنتقل السورة لتقييم دعائم المجتمع الفاضل على أسس متينة من الحب والخير والوئام، فتأمر بصيانة كرامة الفرد، وتنهى عن السخرية والهمز واللمز بأحد من المؤمنين، لأنهم يجب أن يكونوا وحدة متماسكة كأعضاء في جسم الإنسان.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّغَطِ بَسَّ إِلَاسَ الْفُسُوقِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

وقد خاطب الله تعالى المؤمنين بصفة الإيمان، الناهية لهم عن كل ما فيه إخلال أو إفساد، أو سوء أدب أو إيذاء للمؤمن، أو تحقير له أو استصغار أو تعيب، فجميع ذلك هي أمور فيها إخلال ومنافاة للأخوة الإيمانية وإن تلك المناهي تتنافى مع دعواهم الإيمان، بل إن الإيمان الذي اتصفوا به يطالبهم بالانتهاء عن تلك المناهي.

فنهى تعالى أولاً عن السخرية، وهي الهزاء والاحتقار للغير قولاً أو فعلاً، بحضرة ذلك الغير، وقد تكون السخرية بالنظر إلى المسخور منه بعين النقص، أو التنبيه على ما فيه من العيوب والنقائص على وجه يضحك منه الحاضرين، وقد تكون بالمحاكاة بالفعل، أو بالقول، أو بالإشارة أو الإيماء أو الضحك على كلام المسخور منه إذا غلط، أو الضحك على صفته أو دمامة صورته، أو نقص في مداركه، أو قد يتعلق بتقصيره في الطاعة والعبادة ونحو ذلك.

(١) انظر تفسير الحجرات، سراج الدين (١٥٦ وما بعدها) وإحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي (٣/١٣١) والخلق الكامل، جاد المولى (١/٣٧٣) ودستور الأخلاق في الإسلام، دراز (٧٢٩).

وتنتقل الآيات إلى نهي المؤمنين أن يعيبوا بعضهم فقال تعالى:

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا يعيب بعضكم بعضاً، وقد جعل الله لمر بعض المؤمنين لماً للنفس لأنهم كنفس واحدة، فمتى عاب المؤمن أخاه فكأنما عاب نفسه والهماز اللماز مذموم ملعون، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]. والهمز يكون بالفعل والقول، وقد عاب الله تعالى من اتصف بذلك في قوله تعالى: ﴿هَمَازٍ مَّشَاءٍ بَنِيمٍ﴾ [القلم: ١١].

ثم تذكر الآية التنازع بالألقاب، أي التداعي بالألقاب التي يسوء الشخص سماعها فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي لا يلقب بعضكم بعضاً لقب سوء يغيظه، كأن يقول المسلم لأخيه المسلم: يا فاسق، يا منافق، أو يقول لمن أسلم: يا يهودي أو يا نصراني، أو ينادي لأي إنسان باسم حيوان من الحيوانات، وقد نص العلماء على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره، سواء أكان صفة له أم لأبيه أم لأمه، أم لكل من ينسب إليه، روى مسلم عن رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ قَالَتْ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ! فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدَهُمَا، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ»^(١).

المطلب السادس - اجتناب سوء الظن بالمؤمنين^(٢):

تطهيراً للضمير من أن يتلوث بالظن السيء بالآخرين، ليظل المجتمع نقياً

(١) مسلم في الإيمان، باب: بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر، (٢٢١/١٨)، رقم (١١١).

(٢) انظر تفسير سورة الحجرات، سراج الدين (١٨٨) ودستور الأخلاق في القرآن، دراز (٦٩٦).

بريئاً من الهواجس والشكوك قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

حيث تخاطب الآية المؤمنين لتنبيه إلى أمر عظيم، وخطر جسيم، ينبغي الإصغاء إليه وتلقيه بالقبول والطاعة، بمقتضى الإيمان الذي اتصفوا به، ألا وهو سوء الظن بالمؤمنين فقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين أن يتباعدوا عن كثير من الظن، حتى لا يقعوا في ظنون سيئة فيها قهمة بالسوء لمن هو ليس في موضع سوء الظن، كمن يظن به الفاحشة أو شرب الخمر أو غير ذلك من المحرمات بدون أن يكون لديه دليل على هذا الظن بل كان المظنون به ظاهر الصلاح، أو هو مستور الحال لم يعرف بتعاطي المحرمات قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»^(١). أو أن يظن الإنسان بأخيه سوءاً لتصرف ظهر منه، ولم يحسن فهمه أو كان الأمر يحتمل الوجهين، فيحمله على السوء أولاً من غير أن يعذر أخاه أو يقدم المحمل الحسن.

أما أهل السوء والفسوق المجاهرون بالفجور، فيجوز ظن السوء بهم لتجنبهم والتحذير من سلوكهم.

المطلب السابع - النهي عن التجسس^(٢):

تنهى السورة عن التجسس لكشف عورات المسلمين وتبع هفواتهم، فيقول تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢].

(١) مسلم، باب تحريم الظن والتجسس، (٤/١٩٨٥)، رقم (٢٥٦٣).

(٢) انظر تفسير سورة الحجرات، سراج الدين (١٩٤) وما بعدها ودستور الأخلاق، دراز (٧٣٠).

والتجسس هو تتبع أخبار الغير والبحث عما يكتُم منها، والاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو التسمع على أبواهم، والبحث عن عورات الناس ومعايهم، والاستكشاف عما ستروه من الزلات والعثرات، وهو يعد من الكبائر، كما قال الجمهور.

قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع عورته يفضحه في بيته»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون أو يفرون منه صب في أذنه الآنك يوم القيامة»^(٢) - والآنك: الرصاص المذاب - فالتجسس المنهي عنه في الآية هو البحث عن عورات الناس وذنوبهم المستترة، وهي ذنوب فعلوها متسترين، قاصرة عليهم لا يتعدى شرها للغير ولا أذاها، ولا ضرر منها على غيرهم.

المطلب الثامن - التحذير من الغيبة^(٣):

تحذر السورة من الغيبة التي تقدم بنيان المجتمع، ويجيء النهي في تعبير عجيب يصوره القرآن الكريم بشكل تنفر منه النفوس، حتى ولو كانت ضعيفة

(١) أبو داود في الغيبة، باب: من رد عن مسلم غيبة، (٦٨٦/٢)، رقم (٤٨٨٠).

(٢) البخاري في التعبير، باب: من كذب في حلمه، (٣٧٤/١٢) رقم (٢٤٨).

(٣) انظر تفسير سورة الحجرات، سراج الدين (١٩٨) وتفسير الجلالين، المحلي والسيوطي (٥٤٣) وإتمام فتح الخلاق في مكارم الأخلاق للدجوي، علاء الدين زعترى ومحمد علي سلطاني (١٨٧)، والخلق الكامل، جاد المولى (٤٣/٤)، وصحيح مسلم بشرح النووي، يحيى بن شرف الدين النووي (١٤٢/٨) وإحياء علوم الدين، الغزالي (١٤١/٣) ومختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي (١٤٦) والخطايا، عفيف طيارة (١٣١).

الشعور والإحساس، إنه منظر الأخ يأكل لحم أخيه وهو ميت، ويا له من تنفير عجيب، يقول تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. والغيبة هي كما بينها رسول الله ﷺ في الحديث حيث قال:

«أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره. قيل: أ رأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»^(١). والمراد بذكرك أخاك بما يكره، ذكره صريحاً أو كناية أو كتابة، أو رمزاً أو إشارة، فإن علة النهي عن الغيبة هي الإيذاء بتفهيم الغير نقصان المعتبر، فبأي وجه كان هذا الإفهام، فهو غيبة والمراد بما يكره في قوله ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره» بأي شيء يكرهه، سواء كان ذلك يتعلق في دينه أو دنياه، أو خلقه أو خلقه أو ماله أو ولده، أو زوجته أو مملوكته أو خادمه أو لباسه، أو غير ذلك مما يتعلق به.

ولما كانت الغيبة من الكبائر وجبت التوبة منها، وذلك بالإقلاع عنها، والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة إليها، والتحلل منها، لأنها حق آدمي ومظلمة له.

وقد قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلمة لأحد في عرضه أو شيء فليتحلله اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»^(٢).

(١) مسلم في البر باب: تحريم الغيبة، (٢٠٠١/٤)، رقم (٢٥٨٩).

(٢) البخاري في المظالم، باب: من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له، (٧٣/٥)، رقم (٢٣١٧).

المطلب التاسع - المساواة بين الناس والتفاضل بالتقوى^(١):

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

لما بين سبحانه فيما سبق أن المؤمنين إخوة، وأمر بأداء حقوق هذه الأخوة، ونهى عما فيه انتهاك لحرمتها، بين في هذه الآية تأكيد الأخوة الإيمانية التي هي الأصل وتقويتها بالأخوة الإنسانية وأنهم كلهم إخوة خلقوا من أب واحد، وأم واحدة، فهم سواسية، ليس لأحد منهم فضل على غيره ولا أكرمية لأحد ولا رفعة إلا بتقوى الله ﷻ.

وبين تعالى أن التقوى ليست دعوى، وكون الإنسان أتقى من غيره ليست مستندة إلى دعواه، بل مرد ذلك إلى الله تعالى، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. وقد جعلهم الله شعوباً وقبائل ليتعارفوا فيتآلفوا ويتكاتفوا ويشد بعضهم أزر بعض، ولم يجعلهم كذلك ليتفاخروا على بعضهم ويرفعوا وينقسموا ويتخالفوا.

المطلب العاشر - الإيمان الحقيقي وأماراته^(٢):

بين الله تعالى صفات المؤمنين وحقيقة الإيمان بقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

-
- (١) انظر تفسير سورة الحجرات، سراج الدين (٢٧٣) وتهذيب مدارج السالكين، عبد المنعم العربي (٢٩٠) ونيل الأرب في معرفة الأدب، محمود حمدي المرعشي (١٣٩).
- (٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير [الحجرات: ١٥] (٢٢٠/٤)، وتفسير سورة الحجرات، سراج الدين (٣٦٥).

أَبْتَنَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾
وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ
الْأَرْضَ دُونَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴿المؤمنون: ١-١١﴾.

خاتمة السورة:

تختم السورة بالحديث عن الأعراب الذين ظنوا الإيمان كلمة تقال باللسان،
ثم جاؤوا يمينون على النبي ﷺ إيمانهم ونسوا أن الإيمان قول وعمل وجهاد في
سبيل الله وتضحية بالنفس والنفيس، وليس مجرد دعوى يدعيها الإنسان.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا
يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَهَدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ
بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمْشُونَ
عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾
[الحجرات: ١٤-١٨].

وقد رد الله ادعاء الأعراب أنهم مؤمنون بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾
لأن الإيمان هو التصديق الجازم مع الثقة وطمأنينة القلب، وهذا لم يحصل لهم
حينذاك، وإلا لما منوا على الرسول ﷺ إسلامهم، ولما طمحووا إلى الصدقات
والعطيات، لذلك قال تعالى لهم: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ فأثبت لهم الإسلام
ونفى عنهم الإيمان مما دل على أنهم أرادوا بإسلامهم الاستسلام ظاهراً خوفاً

القتل، ولتجري عليهم أحكام المسلمين من حقن الدماء وحفظ الأموال والأعراض وغير ذلك، فقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ هو قول بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وهذا هو الإسلام ظاهراً وهو صفة المنافقين، ثم بينت الآيات أن الله تعالى يعلم ما في السموات وخفاياها، وما حوته زواياها، ويعلم ما في الأرض وما في خباياها، وما حوت وخفي في بطونها وما في قعر بحورها، وأرجاء برها، وكنوز جبالها، وما في بطون شعابها وأوديتها، ومن جملة ما يعلمه تعالى ما في خفايا نفوس البشر، وضماير قلوبهم، وخبايا صدورهم.

قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].



إِفْصَلُ الثَّانِي
سورة الحجرات
بالتفصيل

المبحث الأول

الأدب مع رسول الله ﷺ وعدم التقدم عليه بالأقوال والأعمال

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١)

المطلب الأول - الشرح:

ابتدأت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى احترام أوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ، وألا يبدوا رأياً أو يقضوا حكماً أو يرموا أمراً قبل أمر الله وأمر رسوله ﷺ، فإن ذلك من مستلزمات الإيمان وفي هذا الاستهلال نهي واضح عن مخالفة كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، والآية شاملة أيضاً لترتيب مصادر الاجتهاد، عن معاذ بن جبل^(١) رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له حين بعثه إلى اليمن: «كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله»^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ذكر هذا اللفظ في هذه السورة خمس مرات، والمخاطب فيها المؤمنون، والمخاطب به أمر، أو نهي، وذكر فيها:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مرة، والمخاطب فيها يعم المؤمنين، والكافرين، كما أن المخاطب به، وهو قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ يعمهما؛ فناسب فيها ذكر الناس.

(١) معاذ بن جبل الخزرجي: صحابي وأعلم الأمة بالحلال والحرام، ت (١٨) هـ — الإصابة: (٤٠٦/٣).

(٢) أبو داود في الأفضية، باب: اجتهاد الرأي في القضاء، (٣/٣٣٠)، رقم (٣٥٩٤).

﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: من قدم بمعنى: تقدم، وفي الآية استعارة تمثيلية، شبه تعجل الصحابة في إقدامهم على قطع الحكم في أمر من أمور الدين بغير إذن الله سبحانه ورسوله ﷺ، بحالة من تقدم بين يدي متبوعه، إذا سار في طريق فإنه في العادة مستهجن، والغرض تصوير كمال المهجنة، وتقبيح قطع الحكم بغير إذن الله ورسوله.

وقيل: ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ معناه: بحضرتهما؛ لأن ما يحضره الإنسان، فهو بين يديه، ناظر إليه.

المطلب الثاني - سبب النزول:

عن نافع بن عمر عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافاك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾^(١).

المطلب الثالث - الإعراب:

﴿يَا أَيُّهَا﴾ (يا): أداة نداء تنوب مناب: أَدْعُو.
(أَيُّهَا): نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب بأداة النداء.
(ها): حرف تنبيه للتوكيد لا محل له.
﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع بدل من: (أَيُّهَا).

(١) البخاري، باب التقاضي، (١٣٧/٦)، رقم (٤٨٤٥).

﴿لَا﴾: ناهية. ﴿تَقْدِمُوا﴾: الجملة الفعلية ابتدائية لا محل لها.

﴿بَيْنَ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله.

(اتقوا): أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله.

والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: الجملة الاسمية تعليل لما قبلها، لا محل لها.

المطلب الرابع - الفوائد:

١- الآية أصل في ترك التعرض لأقوال النبي ﷺ، وإيجاب اتباعه والافتداء به.

٢- إن الأخذ على يد الشيخين الصحابين الجليلين المبشرين بالجنة وهما خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ دليل على حساسية الأمر وأهمية المبدأ، وفي لفظ راوي الحديث: (كاد الخير أن يهلك أبا بكر وعمر رضي الله عنهما). ما يجعل القائل يقول: (إذا كاد الخير أن يهلكا يمثل هذه المعصية فما بالك بمن هو دونهما في الفضل والإيمان والسبق والمكانة؟!).

فالأمر عظيم إذا والخطب جلل بلا ريب.

٣- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ

اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فيه بيان الموقف الذي يجب على المؤمنين أن يقفوه مع رسول الله ﷺ، وهو موقف المقتدي مع الإمام، وموقف التابع في الأمور القولية والفعلية والخلقية والنفسية مع أكمل متبوع، ويسلم له تسليماً في جميع الأمور التي جاء بها من غير اعتراض ولا انتقاد ولا توقف، بعد أن آمن أنه رسول الله ﷺ.

فلا يجوز للمؤمن أن يتدع أمراً: قولاً أو عملاً ليس له أصل وارد في كتاب الله تعالى أو سنة رسول الله ﷺ، أما ما كان له أصل أو يدخل تحت

قواعد الشريعة المستندة إلى الكتاب والسنة فليس ببدعة، فإن البدعة هي ما لا أصل له في الشرع ولا دليل ولا نظير.

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: لو أن قوماً عبدوا الله تعالى، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصاموا رمضان، وحجوا البيت ثم قالوا لشيء صنعه رسول الله ﷺ: (ألا صنع خلاف ما صنع)، أو وجدوا في أنفسهم حرجاً مما صنع رسول الله ﷺ لكانوا مشركين كافرين. ثم تلا هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

٤- ذكر الله تعالى اسمه وَجَلَّ أولاً ليقرن ذكر رسول الله ﷺ بذكر اسمه، رفعة لذكر رسوله الكريم ﷺ، وإعلاماً بكرامته وشرف منزلته عند الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. وإن شرف الرسول وكرامته هي تابعة لعظمة مرسله وكرامته ومجده.

٥- اتباع الصحابة لرسول الله ﷺ:

كان الصحابة رضي الله عنهم يرون أن الدين هو اتباع النبي ﷺ بلا توقف ولا نظر في جميع أقواله وأفعاله إلا ما قام عليه دليل اختصاصه به ﷺ، ومن أمثلة اتباعهم له ﷺ:

أ- نزعوا خواتيم الذهب لما نزع ﷺ خاتم الذهب، كما جاء عن ابن عمر رضي الله عنه قال: (اتخذ رسول الله ﷺ خاتماً من ذهب وجعل فصه من قبل كفه، فاتخذ الناس خواتيم الذهب، فألقى رسول الله خاتمه، وقال: «والله لا ألبسه أبداً» وألقى الناس خواتيمهم)^(١).

(١) النسائي، (٤٥٦/٥)، رقم (٩٥٤٦).

ب- عن علي بن ربيعة قال: رأيت علياً عليه السلام أتي بدابة ليركبها، فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوى عليها قال: الحمد لله ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣] ثم حمد الله تعالى ثلاثاً، وكبر ثلاثاً، ثم قال: سبحانك لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسي فاغفر لي، ثم ضحك. فقلت له: مم ضحكت يا أمير المؤمنين؟! فقال عليه السلام: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل مثل ما فعلت ثم ضحك، فقلت له: مم ضحكت يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «يعجب الرب من عبده إذا قال: رب اغفر لي، ويقول: علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري»^(١).

ج- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته قال: «ما حملكم على إلقاءكم نعالكم؟» قالوا: رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا. فقال صلى الله عليه وسلم: «إن جبريل عليه السلام أتاني فأخبرني أن فيهما قدراً، وقال: إذا جاء أحدكم المسجد فلينظر فإن رأى في نعليه قدراً أو أذى فليمسحه وليصل فيهما»^(٢).



(١) أحمد، باب مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه، (٩٧/١)، رقم (٧٥٣).

(٢) أبو داود، باب الصلاة في النعل، (٢٤٧/١)، رقم (٦٥٠).

(يا) في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾

(يا) في اللغة موضوعة للبعد مكاناً أو رتبة، وقد جرت عادة الله تعالى في نداءه لعباده أن يناديهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا...﴾ لا للبعد المكاني، وإنما هو من باب تعالى مقام الرب، وعزة سيادة ألوهيته سبحانه.

أ- نداء العباد لربهم عز وجل:

يأتي نداء العباد ودعاؤهم ربهم غالباً بحذف أداة النداء، فقد ذكر الله تعالى دعاء الأنبياء والأولياء والمؤمنين.

فقال تعالى مخبراً عن دعاء أبينا آدم عليه السلام: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا نُزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

وقال تعالى عن الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وهكذا الكليم عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

وأخبر سبحانه عن دعاء أوليائه، فقال تعالى في أصحاب الكهف: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وقال تعالى في دعاء المؤمنين: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا
ءَامَنَّا فَأَعْرِضْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

فكلهم دعوه باسم الرب سبحانه، لأنه ربه، وهو خالقهم ومربيهم،
وأرحم بهم من أنفسهم، وأعلم بما يصلح شأنهم، ويصلح بالهم، دعوه سبحانه
ولم يذكروا أداة النداء وهي (يا) استشعاراً بقربه سبحانه، وتحقيقاً بالأدب الذي
أرشدهم إليه حيث قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ
الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وما ورد من الدعاء بـ (يا رب) فقد يلاحظ الداعي بذلك ذلّه وبعده
عن عزة مقام الألوهية، وسلطان مقام الرب سبحانه.

ب - نداء الله تعالى لعباده:

النداء بـ ﴿يَا أَيُّهَا﴾ أقوى في التنبيه إلى ما سيلقى على الناس بعد النداء،
وليعلموا أنه أمر عظيم يجب الانتباه إليه والتحقق بما يتطلبه. فقولك: يا أيها
الرجل، أقوى في التنبيه من: يا رجل.

إن كل من تدبر في آيات القرآن الكريم يعلم أن الخطابات الإلهية التي
فيها إرشادات الله تعالى لعباده، والتي فيها الأوامر والمناهي ونحو ذلك، جاءت
على أنواع من الصفات والنعوت، فيقول سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾، ويقول:
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، ويقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

١ - خطاب الله سبحانه لعباده بوصف بني آدم: يدل على أن ما وراء ذلك
أمر عام، وحكم شامل لجميع بني آدم.

يقول سبحانه: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف: ٣٥-٣٦].

٢- أما الخطاب بوصف الناس: فقد يراد به جميع الناس من المؤمنين وغيرهم، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وقد يراد به المشركون، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّكَ الَّذِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۚ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]. وكثيراً ما كانت تنزل الخطابات الإلهية بصفة الناس في مكة المكرمة، وقد نزل منها الكثير في المدينة، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] وقوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

٣- الخطابات الإلهية بصفة الإيمان: هذه الخطابات موجهة للمؤمنين، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ جاء ذلك خمس مرات في هذه السورة الكريمة.

وفي الخطاب بهذه الصفة وجوه من الحكم:

أولاً: تشريفه وتكريمه سبحانه لعباده المؤمنين.

ثانياً: تحريض للمؤمنين وحث للاهتمام بما يليه من الأوامر أو المناهي.

ثالثاً: فيه بيان أن ما سيلقيه عليهم بعد هذا النداء يجب عليهم أن يسارعوا إلى تطبيقه والتحقق به، ائتماراً بالأمر، وانتهاء في النهي، لأن ذلك هو مقتضى إيمانهم الذي اتصفوا به، وبذلك يتبين الصادق في الإيمان من المنافق الكاذب.

وأن الواجب عليهم أن يكونوا مطيعين متبعين لما جاء عن الله تعالى، وما جاء به رسول الله ﷺ مقتدين به ﷺ في جميع الأمور، دون أن يُحدثوا شيئاً من تلقاء أنفسهم أو يتكلموا في أمر ما قبل كلامه ﷺ.

قال رجل لابن مسعود رضي الله عنه: أوصني، فقال له: إذا سمعت الله وعلى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فأصغ إليها سمعك، فإنه خير توصى به، أو شر تصرف عنه^(١).



(١) البيهقي، فصل في إحضار القارئ قلبه ما يقرأه و التفكير فيه، (٣٦١/٢)، رقم (٢٠٤٥).

المبحث الثاني

الآداب بالحديث مع رسول الله ﷺ

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٢)

المطلب الأول - الشرع:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾: نادى الله تعالى المؤمنين الصادقين ثانية، استدعاء منهم لتحديد الاستبصار عند كل خطاب وارد، وتحريك همهم، لئلا يغفلوا عن تأملهم. والمعنى: لا تجعلوا كلامكم مرتفعاً على كلام النبي ﷺ في الخطاب، وذلك لأن رفع الصوت دليل على قلة الاحتشام، وترك الاحترام، وقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿لَا تُقَدِّمُوا...﴾ فهي عن فعل، وقوله هنا: ﴿لَا تَرْفَعُوا...﴾ فهي عن قول.

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ...﴾، أمرهم الله تعالى أن يبجلوه، ويفخموه، ويعظموه، ولا يرفعوا أصواتهم عنده، ولا ينادوه كما ينادي بعضهم بعضاً، فيقول: يا محمد، بل يقولون: يا رسول الله! يا نبي الله! قال تعالى:

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ [النور: ٦٣].

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: مخافة أن تحبط أعمالكم.

والحَبَطُ: آثارُ الجرح أو السَّيَاطِ بِالْبَدَنِ، وَحَبَطَ الْجُرْحُ حَبَطاً بِالتَّحْرِيكِ: نُكِسَ. وَحَبَطَ الْجُرْحُ: إِذَا بَقِيَتْ لَهُ آثَارٌ بَعْدَ الْبُرْءِ.

وحبط عمله يحبط حبطاً وحبوطاً: بطل ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ

وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبُطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

وتقول: حبط فلان عن فلان: أي أعرض.

﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾: وأنتم لا تعلمون.

ومعنى الآية: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده ﷺ خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه، فيبطل الله عمل من أغضبه وهو لا يدري، كما جاء في الحديث: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى، لا يُلقى لها بالاً يكتب له بها الجنة. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقى لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين السموات والأرض»^(١).

المطلب الثاني - سبب النزول:

روي عن علي ﷺ قال: نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ فينا لما ارتفعت أصواتنا أنا وجعفر وزيد بن حارثة، نتنازع ابنة حمزة لما جاء بها زيد من مكة، فقضى بها رسول الله ﷺ لجعفر، لأن حالتها عنده^(٢).

حدث بعد نزول الآية:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله والله لا أكلمك إلا السرار، أو أخا السرار، حتى ألقى الله. وعن

(١) أحمد، (٣٨٦/٥)، رقم (٢٣٦٦٧).

(٢) عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: خرج زيد بن حارثة إلى مكة فقدم بابنة حمزة، فقال جعفر: أنا آخذها، أنا أحق بها، هي ابنة عمي، وعندي حالتها، وإنما الخالة أم، وقال علي: أنا أحق بها هي ابنة عمي، وعندي ابنة رسول الله ﷺ، فهي أحق بها، وقال زيد: أنا أحق بها، هي ابنة أخي وإنما خرجت إليها، وسافرت وقدمت بها، فقضى بها رسول الله ﷺ لجعفر وقال: الخالة أم. أخرجه أبو داود.

عمر رضي الله عنه: أنه كان يكلم النبي ﷺ بعد ذلك كأخي السرار، لا يسمعه حتى يستفهمه، وروي أيضاً: لما نزلت الآية الكريمة قعد ثابت بن قيس بن شماس^(١) في بيته، وكان جهوري الصوت، وقال: أنا من أهل الآية، واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل عنه النبي ﷺ سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال: «يا أبا عمرو ما شأن ثابت، أيشتكى؟» فقال سعد رضي الله عنه: إنه لجاري، وما علمت له شكوى، قال فأتاه سعد فذكر له قول الرسول ﷺ، فقال ثابت رضي الله عنه: نزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل هو من أهل الجنة»^(٢).

زاد في رواية: (فكنا نراه يمشي بين أظهرنا رجل من أهل الجنة).

وفي رواية أخرى: فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا ثابت؟»

فقال: أنا صيِّت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت فيّ، فقال رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة».

فقال: رضيت ببشرى الله ورسوله، لا أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أبداً، فنزلت الآية التالية.

فقال أنس رضي الله عنه: فكنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أيدينا، فلما كان يوم اليمامة في حرب مسيلمة، رأى ثابت رضي الله عنه من المسلمين بعض

(١) ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي يكنى أبا محمد بابنه محمد. وقيل: أبا عبد الرحمن. قتل له يوم الحرة ثلاثة من الولد: محمد، ويحيى، وعبد الله. وكان خطيباً بليغاً معروفاً بذلك، كان يقال له: خطيب رسول الله ﷺ، كما يقال لحسان: شاعر رسول الله ﷺ.

(٢) مسلم، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله، (١/١١٠)، رقم (١٨٧).

انكسار، وانهزمت طائفة منهم، فقال: أف لهؤلاء، ثم قال ثابت لسالم مولى أبي حذيفة: ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله ﷺ مثل هذا، ثم ثبنا، وقاتلا حتى قتلا، واستشهد ثابت وعليه درع، فراه رجل من الصحابة رضي الله عنه بعد موته في المنام، فقال له: اعلم أن درعي عند فلان رجل من المسلمين نزعته مني، فذهب به، وهو في ناحية من العسكر عند فرس يستن في طوله، فأث خالد ابن الوليد، فأخبره حتى يسترد درعي، واثت أبا بكر، وقل له: إن علي ديناً حتى يقضيه عني، وفلان من رقيقي عتيق، فأخبر الرجل خالداً فوجد الدرع والفرس على ما وصفه، فاسترد الدرع، وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤيا، فأجاز أبو بكر رضي الله عنه وصيته. قال مالك ابن أنس: لا أعلم وصية أجيّزت بعد موت صاحبها إلا هذه.

المطلب الثالث - الإعراب:

﴿فَوْقَ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله.

﴿كَجَهْرٍ﴾: متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، التقدير: جهراً كأننا كجهر.

﴿لِبَعْضٍ﴾: متعلقان بالمصدر قبلهما، والمصدر المؤول من ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ﴾ في محل جر بالإضافة لمفعول لأجله محذوف، التقدير: كراهية إحباط أعمالكم، أو على تقدير: لئلا تحبط.

﴿وَأَنْتُمْ﴾ الواو: واو الحال. (أنتم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، والجملة الفعلية ﴿لَا تَشْعُرُونَ﴾ في محل رفع خبره. والجملة الاسمية في محل نصب حال من الكاف الواقعة في محل جر بالإضافة في ﴿أَعْمَلُكُمْ﴾.

المطلب الرابع - الفوائد:

١- في الآية دليل على أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة، وهو الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم، وهو الخلو من مراعاة عظمة النبوة وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها.

٢- مواضع يستثنى فيها جواز رفع الصوت أمام رسول الله ﷺ:

أ- ليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة، لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون. وإنما الغرض صوت غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء، فيتكلف الغض منه ورده إلى حد يعيل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩].

ب- لم يتناول النهي أيضاً رفع الصوت الذي لا يتأذى به رسول الله ﷺ، وهو ما كان منهم بالأذان أو في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو أو ما أشبه ذلك، مما لا يوهم الإيذاء أو الاستهانة، بل فيه ما يرضي رسول الله ﷺ وما يسره ففي الحديث أنه قال النبي ﷺ للعباس بن عبد المطلب لما انهمز الناس يوم حنين: «اصرخ بالناس»، وكان العباس أجهر الناس صوتاً^(١).

(١) ففي صحيح مسلم أن النبي ﷺ أمر عمه العباس ﷺ يوم حنين أن ينادي بصوت عال، فقال له: (يا عباس ناد يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة يا أصحاب سورة البقرة). وكان العباس رجلاً صيتاً، ولذا خصه ﷺ بالنداء - قيل كان يُسمع صوته من بعد ثمانية أميال-. قال العباس ﷺ: وكنت رجلاً صيتاً فناديت بأعلى صوتي: يا أصحاب السمرة -يعني: شجرة الرضوان التي بايعوا رسول الله ﷺ =

٣- ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ لا تعني الآية أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم، فكما لا يكون الكافر مؤمناً إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون المؤمن كافراً من حيث لا يقصد إلى الكفر ولا يختاره بإجماع، أي لا بد من القصد في الإساءة والإصرار عليها بعد التنبيه حتى يعد كافراً.

٤- في هذه الآية بيان وجوه من الأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ، وذلك أن فيها النهي عن التجاوز في كيفية القول عند النبي ﷺ، بعد النهي عن التجاوز في نفس القول والعمل والتقدم عليه بذلك في الآية السابقة، فهذا هنا نوعان:

أ- النهي مع التحذير الشديد.

ب- الوعيد والتهديد لمن يقع في ذلك، وهو حبوط الأعمال مهما عظمت وكثرت وكبرت.

٥- أعاد سبحانه النداء مع (أيها) مع قرب العهد بالنداء الأول وذلك للمبالغة في الإيقاظ والتنبيه.

=تحتها على أن لا يفروا ولا ينهزموا عنه، فجعل العباس ﷺ ينادي بأعلى صوته يا أصحاب السمرة وجعل يقول أيضاً: يا أصحاب سورة البقرة وخصت بالذكر لأن فيها قوله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ۚ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧] وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]. فلما سمع المسلمون صوت العباس ﷺ أقبلوا كأهمل الإبل إذا حنت على أولادها.

٦- أَعَادَ وَصَفَهُم بِالْإِيمَانِ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا

أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ لِيَعْلَمُوا حَقًّا أَنَّ الْقَضِيَّةَ مُتَعَلِّقَةٌ بِأَصْلِ الْإِيمَانِ.

٧- نَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَعَامِلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْجَهْرِ بِالْقَوْلِ مُعَامِلَةً الْأَقْرَانَ لِبَعْضِهِمْ بَعْضًا، مِنْ حَيْثُ الْمَسَاوَاةُ فِي أَصْوَاتِهِمْ، بَلْ يَجِبُ الْغَضُّ وَالْخَفْضُ تَهْيِيًّا وَتَعْظِيمًا لَهُ ﷺ، وَإِجْلَالًا لِمَقَامِ نُبُوَّتِهِ الْخَاتِمَةِ.

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا النَّهْيِ التَّحْذِيرُ مِنْ مُخَاطَبَتِهِ بِاسْمِهِ أَوْ كُنْيَتِهِ، كَمَا يُخَاطَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ خُطَابُهُمْ إِيَّاهُ بِأَوْصَافِ التَّكْرِيمِ وَالتَّعْظِيمِ، فَلَا يَقُولُوا: يَا مُحَمَّدٌ، أَوْ يَا أَحْمَدُ، بَلْ يَقُولُونَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ.

وَقَدْ اسْتَدَلَّ الْعُلَمَاءُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى عِدَّةِ أُمُورٍ، أَهْمُهَا:

أ- الْمَنْعُ مِنْ رَفْعِ الصَّوْتِ فِي مَسْجِدِهِ ﷺ، وَعِنْدَ قَبْرِهِ الشَّرِيفِ ﷺ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ حَيٌّ فِي قَبْرِهِ الشَّرِيفِ ﷺ حَيَاةً أَقْوَى وَأَعْظَمَ مِنْ حَيَاةِ أَهْلِ الدُّنْيَا، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الشَّرِيفَةُ.

أَوَّلًا- الْأَنْبِيَاءُ أَحْيَاءُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَيْتُ عَلَى مُوسَى لَيْلَةَ أُسْرِي بِي عِنْدَ الْكُتَيْبِ الْأَحْمَرِ وَهُوَ قَائِمٌ يَصْلِي فِي قَبْرِهِ»^(١). فَلِأَنْبِيَاءِ أَحْيَاءٍ فِي قُبُورِهِمْ يَصَلُّونَ، وَقَدْ اجْتَمَعَ ﷺ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ بِالْأَنْبِيَاءِ وَصَلَّى بِهُمْ إِمَامًا، كَمَا قَالَ ﷺ: «فَحَانَتِ الصَّلَاةُ فَأَمَّتْهُمْ»^(٢).

ثَانِيًا- بَلُوغُهُ ﷺ صَلَاةَ الْمُصَلِّينَ وَالْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ: فَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنْ صَلَّاتُكُمْ تَبْلُغُنِي»^(٣).

(١) مُسْلِمٌ، بَابُ فَضَائِلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، (١٠٢/٧)، رَقْمٌ (٦٣٠٦).

(٢) مُسْلِمٌ، بَابُ فِي ذِكْرِ الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ، (١٠٨/١)، رَقْمٌ (٤٤٨).

(٣) أَبُو دَاوُدَ، بَابُ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، (٦٢٢/١)، رَقْمٌ (٢٠٤٢).

ب- المنع من رفع الصوت عند قراءة حديثه ﷺ: فإن حرمة النبي ﷺ بعد وفاته كحرمته قبلها، وكلامه المأثور عنه ﷺ بعد وفاته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه ﷺ، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر أن لا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه، بل يجب الإقبال عليه والإصغاء إليه كما كان يلزمه ذلك في مجلسه ﷺ عند تلفظه به.

ج- عند قراءة سيرته الشريفة وبيان أوصافه وشمائله الحميدة، وخصاله المحيطة عند قراءة قصة مولده الشريف.

د- عند سماع المدائح النبوية، كما يجب على المادحين مراعاة الأدب والتكريم والتعظيم له ﷺ.

قال الإمام العلامة القسطلاني وغيره رحمهم الله تعالى: إذا كان رفع الأصوات فوق صوته موجباً لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته ﷺ وعلى ما جاء به؟!.

هـ- كره العلماء رفع الصوت في مجالس العلم تشریفاً للعلماء ولعلمهم الذي ورثوه عن رسول الله ﷺ.

٨- نداء الله تعالى للأنبياء في القرآن الكريم:

نادى الله سبحانه جميع الأنبياء بأسمائهم، ولكنه نادى حبيبه الأكرم ﷺ بألقاب التكريم بالنبوة والرسالة ونحوهما.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال تعالى ملاطفاً له ﷺ بالخطاب: ﴿يَأْتِيهَا الْمَزِيدُ﴾ [المزمل: ١].

وقال جل وعلا: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدِيرُ﴾ [المدثر: ١].

وأما سائر الأنبياء والمرسلين عليهم السلام فإنه سبحانه ناداهم بأسمائهم.

قال تعالى: ﴿يَتَادُمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿يَنْبُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦].

وقال سبحانه: ﴿يَتَابَرَهُمْ أَغْرَضٌ عَنْ هَذَا﴾ [هود: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿يَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩].

وقال جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي

وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].



المبحث الثالث

جزاء الأدب مع رسول الله ﷺ

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُونَ أَسْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾

لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢﴾

المطلب الأول - الشرح:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُونَ أَسْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾: نزلت هذه الآية الكريمة في مدح المسلمين الذين أدبتهم الآيتان السابقتان، وعلى رأسهم الصديق والфарوق وثابت بن قيس رضي الله عنهم أجمعين. ومعنى غض الصوت: خفضه وعدم الجهر به.

﴿امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾:

الامتحان والحنة في لغة العرب هو: استخلاص الشيء وتصفيته، كقولك: امتحنت الفضة أي اختبرتها حتى خلصت، وامتحنت الذهب أي: اختبرته في النار حتى خلص الذهب الإبريز.

والمعنى: الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ، وهم يتكلمون في حضرته إجلالاً واحتراماً، هم الذين ابتلى الله قلوبهم بالحن والتكاليف الشاقة، حتى تطهرت وصفت بما كابدته من الصبر على المشاق، وهؤلاء لهم مغفرة من ربهم لذنوبهم، ولهم ثواب عظيم على غضهم أصواتهم عند النبي ﷺ احتراماً منهم له، وتعظيماً لقدره.

والتقوى: حفظ النفس من العذاب الأخروي بامثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، لأن أصل المادة من الوقاية، وهي الحفظ والتحرز من

﴿أَمَتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾: الجملة صلة الموصول لا محل لها.

﴿لِلنَّقَوَى﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما وعلامة جره كسرة

مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْصُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ ابتدائية، أو مستأنفة لا محل لها.

﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم.

﴿مَغْفِرَةً﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها.

المطلب الثالث - الفوائد:

١- في هذه الآية دليل على أن حقيقة التقوى لا يظفر بها الأتقياء مهما عملوا من الطاعات، وتباعدوا عن المخالفات، إلا بعد التحقق بمقام الأدب الكامل مع سيدنا محمد ﷺ والتحقق بمقام ﴿وَتُوقَرُّوهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩] أي: تعظموه وتفخموه ﷺ.

إن غض الصوت عنده ﷺ والتزام الأدب معه أخلص مقامات التقوى وأصدقها وأنقاها.

٢- في الآية الكريمة دليل واضح يدل على أن مجالسة رسول الله ﷺ لها شرفها الأعلى ومجدها الأرفع، ولذلك أوجب سبحانه على من كان عنده ﷺ حقوقاً خاصة، وآداباً يجب مراعاتها وعدم التساهل فيها، وقد كان الصحابة ﷺ إذا جلسوا عنده ﷺ كأن على رؤوسهم الطير، ومن مشاهد توقيرهم وأدبهم معه ﷺ ما رواه أنس ﷺ «أن أبواب النبي ﷺ كانت

تقرع بالأظافير»^(١)، وكانوا يفعلون ذلك خوفاً من إزعاجه وإساءة الأدب معه ﷺ.

٣- للذنوب آثار مظلمة في نفس المذنب وقلبه ومكانه، ولها تسجيل وكتابة في صحيفة أعماله فإذا غفر الله تعالى للعبد ذنوبه ستر جميع ذلك، وغطاه بمحو آثارها ومحو كتابتها.

٤- في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ دليل على أن أهم ما يهم المؤمنين، وأكبر مطلوب عندهم هو مغفرة الله تعالى لهم، وأعظم مرغوب يرغبون فيه هو دخولهم جنة الله تعالى التي فيها التجلي بروضاته الأكبر، وفيها رؤية الحق سبحانه، وفيها مقعد الصديق عند مليك مقتدر، ففي غفر ذنوبهم أمنوا من عذاب الله وغضبه، وفي الأجر العظيم دخلوا دار السلام والكرامة.



(١) البيهقي، باب في تعظيم النبي ﷺ وإجلاله وتوقيره، (٢/٢٠٠)، رقم (١٥٣٠).

المبحث الرابع

لَا يَرْفَعُ الصَّوْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا الْخَيْرُ لَا يَحْقِلُونَ

﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

المطلب الأول - الشرع:

الوراء: الجهة التي يوارىها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام، وإن المناداة نشأت من ذلك المكان.

والْحُجُرَاتُ: جمع الْحُجْرَةِ، كَالْعُرْفَاتِ جمع عُرْفَةٍ، والظلمات جمع ظلمة. وقيل: الْحُجُرَاتُ: جمع الْحُجْرُ، وَالْحُجْرُ جمع حُجْرَةٍ، فهو جمع الجمع. والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها، وهي (فُعْلَةٌ) بمعنى مفعولة، كالقبضة بمعنى مقبوضة.

وأصل الكلمة المنع، وكل ما منعت أن يوصل إليه فقد حجرت عليه. وسميت الغرفة حجرة لامتناع فيها، فلا يدخلها أجنبي إلا بإذن واستئذان.

والمراد: حجرات نساء رسول الله ﷺ، وكانت لكل منهن حجرة، ومناداتهم من ورائها لعلهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له، أو نادوه من وراء الحجرة التي كان ﷺ فيها، ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله ﷺ، والفعل وإن كان مسنداً إلى جميعهم، فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم، وكان الباقيون راضين، فكأنهم تولوه جميعاً.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

معنى الآية: لو انتظروا خروجك لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم، وكان ﷺ لا يحتجب عن الناس إلا في أوقات يشتغل فيها بمهمات نفسه، فكان إزعاجه في تلك الحالة من سوء الأدب.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: بليغ الغفران والرحمة واسعها، فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا.

المطلب الثاني - سبب النزول:

نزلت الآية الكريمة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ في وفد بني تميم أتوا رسول الله ﷺ وقت الظهيرة، وهو راقد وفيهم الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصين، ونادوا النبي ﷺ من وراء حجراته، وقالوا: اخرج إلينا يا محمد فإن مدحنا زين وذمنا شين، فاستيقظ وخرج إليهم، وقال ﷺ: «ذاك الله عز وجل»^(١).

المطلب الثالث - الإعراب:

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾.

﴿يُنَادُونَكَ﴾: مضارع مرفوع والواو فاعله والكاف مفعوله، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها.

﴿مِنْ وَرَاءَ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿الْحُجُرَاتِ﴾: مضاف إليه.

﴿أَكْثَرُهُمْ﴾: مبتدأ، والهاء في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿لَا

يَعْقِلُونَ﴾ في محل رفع خبره، والجملة الاسمية ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ في محل خبر ﴿إِنَّ﴾.

والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ...﴾ لا محل لها لأنها مبتدأة أو مستأنفة.

(١) الترمذي، (٣٨٧/٥)، رقم (٣٢٦٧).

﴿وَلَوْ﴾: الواو: استئناف. (لو): حرف امتناع لامتناع وهي حرف شرط.

﴿أَنَّهُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها.

﴿صَبَرُوا﴾: الجملة الفعلية في محل رفع خبرها، وأن واسمها وخبرها في

تأويل مصدر على أحد وجهين:

أ- في محل رفع فاعل لفعل محذوف، والتقدير: ولو ثبت صبرهم أو حصل ونحوه.

ب- في محل رفع بالابتداء والخبر محذوف، التقدير: ولو صبرهم ثابت أو حاصل. والفعل المقدر وفاعله المؤول جملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب.

﴿حَتَّى﴾: حرف غاية وجر تقدر بعدها أن المضمرة.

﴿تَخْرُجُ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: أن المضمرة، والفاعل مستتر

تقديره أنت. ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وأن المضمرة والفعل المضارع

في تأويل مصدر في محل جر بـ: ﴿حَتَّى﴾، والتقدير (حتى خروجك) والجار

والمحروور متعلقان بالفعل ﴿صَبَرُوا﴾.

﴿لَكَانَ﴾: اللام: واقعة في جواب ﴿وَلَوْ﴾.

(كان): فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر يعود إلى مصدر الفعل

﴿صَبَرُوا﴾، التقدير: كان الصبر. ﴿خَيْرًا﴾: خبر كان.

﴿لَهُمْ﴾: متعلقان بـ: ﴿خَيْرًا﴾.

المطلب الرابع - الفوائد:

١- جاءت الآيات ناهية عن إزعاج رسول الله ﷺ، ومنبهةً إلى السلوك

اللائق وهو انتظار النبي ﷺ حتى يخرج للمسلمين حين يكون مستعداً لهم

متفرغاً لهم وغير منشغلٍ عنهم بأمرٍ أخرى، فإن ذلك أدعى لتحقيق مصالح المسلمين من جهة، ومراعاة احترام النبي ﷺ من جهة أخرى، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا﴾.

٢- ورود الآية على النمط الذي وردت عليه، فيه وجوه من إجلال رسول الله ﷺ، منها:

أ - التسجيل على الصائحين به بالسفه والجهل.
ب - إيقاع لفظ الحجرات كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه.

ج - التعريف باللام دون الإضافة (الحجرات).

٣- ابتدأت الآيات بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله تعالى ورسوله ﷺ متقدمة على الأمور كلها من غير تقييد.

٤- عقب ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر، كأن الأول تمهيد للثاني.

٥- أثنى على الغاضين أصواتهم ليدل على عظم موقعه عند الله تعالى.

٦- عقب ذلك بما هو أشد، وهجنته أكبر وهو الصياح برسول الله ﷺ في حال خلوته من وراء الجدر، كما يصاح بأهون الناس قدراً لينبه على فظاعة ما تجرأ عليه أولئك الذين صاحوا، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول، كان صنيع هؤلاء معه، من المنكر الذي بلغ في التفاحش مبلغاً عظيماً.

٧- لماذا قال تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾؟

أ- ربما لأن الذين نادوا هم بعض منهم وليس كلهم، فلم يعمم الحكم عليهم جميعا بالجهل بل كان المعنى: ((إن الذين ينادونك من جملة قوم الغالب عليهم الجهل)).

ب- وقيل: إن الحكم على الأكثر دون الكل بأنهم لا يعقلون يُحتمل أن منهم من لم يقصد ترك الأدب، بل نادى لأمر ما بدون جفوة ولا رفع صوت، أو أكثرهم الذين نادوا، وبعضهم سكتوا وكانوا راضين بذلك النداء وهذان القسمان هم الأكثر، وهناك من سكت وهو غير راض بما جرى وهم أقلهم.

٨- لماذا عبر القرآن الكريم بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿يَنَادُونَكَ﴾ ولم يعبر بالماضي (نادوك)؟

لأجل تحضير الصورة الماضية للسامع، وكأنها تحدث الآن بحيث تجعل السامع في غرابة واستقباح ونفرة لما فعله هؤلاء من النداء بالصوت الجافي من وراء الحجرات.

٩- روى ابن سعد عن سعيد بن المسيب أنه كان يقول: والله لو ددت أنهم تركوا الحجرات على حالها لكي ينشأ ناس من أهل المدينة ويقدم القادم من أهل الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يزهّد الناس في التكاثر والتفاخر في الدنيا.



المبحث الخامس

خبر الفاسق

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلَةٍ فَتُصْحَبُوا
عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَتَدِمِينَ ﴿٦﴾﴾

المطلب الأول - الشرح:

﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾: الفسق في اللغة: هو الخروج عن الشيء.
والفسق: العصيان والترك لأمر الله عز وجل والخروج عن طريق الحق.
والفسوق الخروج عن الدين، وكذلك الميل إلى المعصية.
وفسق عن أمر ربه أي جار ومال عن طاعته.
فإن كان خرج عن العقائد الإيمانية فهو الكفر.
وإن كان خرج عن الواجبات الدينية أو وقع في المنهيات المحرمة شرعاً
فهو العصيان.

والفاسق شرعاً تطلق لعدة معان: الكذاب، و المعلن بالذنب، والذي لا
يستحيي من الله عز وجل.

﴿بِنَبَأٍ﴾: النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال
للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة، وحق الخبر الذي يقال فيه
نبأ أن يتعري عن الكذب، كأخبار القرآن الكريم وخبر النبي ﷺ، والخبر المتواتر.
وقد يتضمن النبأ معنى الخبر فيقال: أنبأته بكذا كقولك أخبرته بكذا.
وقد يتضمن معنى العلم فيقال: أنبأته كذا كقولك أعلمته كذا.

وقوله تعالى: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ أي أنه إذا كان الخبر شيئاً عظيماً
له قدر فحقه أن يتوقف فيه، وإن غلب على الظن صحته حتى يعاد النظر فيه.

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ التبين هو طلب البيان، والتعرف لصحة النبأ.

﴿نَدِمِينَ﴾ أي: آسفين على ما فعلتم، ومغتمين غماً كبيراً لازماً لكم، و متمنين أنه لم يقع ذلك منكم.

فالندم لغة: يدل على الأسف والغم على وقوع شيء مع تمنني عدم وقوعه. وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام ولزام، لأنه كلما تذكر المتنذّم عليه راجعه.

ومادة (الندم) تشعر باللزوم، كما أن جميع تصاريف حروف الندم تُشعر باللزوم، ومن ذلك قولهم: مدن أي: لزم الإقامة، ومنه المدينة أي: موضع الإقامة، ويقال: أدام الشيء أي: أدام فعله.

معنى الآية: في هذه الآية يأمر الله تعالى المؤمنين بأن لا يتعجلوا في حسم الأمور وتصديق الأخبار التي يأتيهم بها أناس فسقة، غير مأمونين في خلقهم ودينهم وروايتهم، لأن من لا يبالي بالفسق فهو أجدر بأن لا يبالي بالكذب، ولا يتحاماه، وقد يؤدي التعجيل في تصديق الأنباء التي ينقلها الفساق إلى إصابة أناس أبرياء بأذى، والمؤمنون يجهلون حالهم، فيكون ذلك الإيذاء سبباً لندامتهم على ما فرط منهم.

المطلب الثاني - سبب النزول:

نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، فقد روى سعيد عن قتادة أن النبي ﷺ بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يأخذ صدقات أموالهم^(١)، فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهأهم وفي رواية: لإحنة (مشكلة) كانت بينه وبينهم، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره أنهم قد ارتدوا عن الإسلام، فبعث النبي ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه وأمره أن يتثبت ولا يعجل، فانطلق خالد رضي الله عنه حتى أتاهم

(١) البيهقي، (٢/٢٧٤)، رقم (٦٧٩).

ليلاً، فبعث عيونه فلما جاؤوا أخبروا خالداً عليه السلام أنهم متمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا اتاهم خالد ورأى صحة ما ذكروه، فعاد إلى نبي الله ﷺ فأخبره، فنزلت الآية الكريمة.

وقال العلماء: ((الآية عامة نزلت لبيان التثبيت، وترك الاعتماد على قول الفاسق. وهذا أولى من حمل الآية على رجل بعينه)).

فالآية نزلت بسبب وحكمها عام إلى يوم القيامة بلا ريب. فليثق الله تعالى من لا يتكلم إلا بالكذب، وقد لا يكتفي به فيؤكد بيمين أو أكثر؟! وقد يخلق الأقوال الكاذبة والأخبار المصطنعة والأنباء الملفقة؟! فكيف يكون من المؤمنين؟.

المطلب الثالث - الإعراب:

﴿إِنْ﴾: حرف شرط جازم.

﴿جَاءَ كُ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط.

﴿يَنْبَأُ﴾: متعلقان بالفعل جاء، والجملة الفعلية ابتدائية أو جملة شرط غير ظرفي لا محل لها.

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط.

(تبينوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط.

﴿أَنْ﴾: حرف مصدرى ونصب. ﴿تُصِيبُوا﴾: مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، وأن والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بإضافة مفعول لأجله محذوف، التقدير: (كراهة أو مخافة إصابتكم).

﴿بِمَجْهَلَةٍ﴾: متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة، التقدير: جاهلين.

﴿فَتُصْبِحُوا﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، والواو اسمها، وأن المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر معطوف على مصدر مأخوذ من الفعل السابق، التقدير: (لئلا تكون منكم إصابة قوم بجهالة، فندامة على فعلكم).

﴿عَلَى مَا﴾: متعلقان بـ﴿نَدِمِينَ﴾.

﴿نَدِمِينَ﴾: خبر (تصبحوا) منصوب.

المطلب الرابع - الفوائد:

١- في الآية إرشاد إلى التثبت في الأمور، وصحة الأخبار والنقول، حتى لا يختل نظام المجتمع، ولا يتفرق الجمع والشمل بسبب أخبار غير صحيحة، وشائعات غير ثابتة.

٢- إن أمر الله تعالى بالتبين والتثبت في خبر الفاسق يدل على عدم إهمال خبر الفاسق مطلقاً في نفس الوقت الذي لا يعتمد عليه بثقة مطلقة، فلا يقال: خبر فاسق لا يؤبه له، إذ ربما فوّت ذلك على الأمة مصلحة ما قد تكون حقيقية في نفس الأمر، وقد ضبطت الآية الهدف من التبين وعللته بالخطر من الوقوع في المفاسد ومنها إصابة قوم من المسلمين بجهالة وما يترتب على ذلك من ندم.

٣- بين الله تعالى علة أمره للمؤمنين بالتثبت من الأخبار، وهي الخوف من أن يصاب قوم بريئون بأذى مما بلغهم عنهم ثم يندموا بعد ذلك على فعلهم، حين لا ينفع الندم وقد وقع الظلم بالبراء، ووقع البشر بالفساد، والعداوات والشحناء، والتفرقة والبغضاء، نتيجة أخبار لا حقيقة لها في الواقع، وإنما هي كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، وما أكثر الوشاة والحاسدين والمفرقين بين الأحبة، والمفسدين بين الناس.

وقد حذر النبي ﷺ من النميمة ومن إفساد ذات البين، وإلقاء العداوة والتفرقة بين المؤمنين بنقل الكلام القبيح المؤدي إلى الفساد بينهم، يقول رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخياركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الذين إذا رؤوا ذكر الله، ثم قال: ألا أخبركم بشراركم؟ المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة، الباغون بالبراء العنت»^(١).

٤- قد يوصف بالفسق الكافر، وقد يوصف به تارك المأمورات، فمن وصف الكافر بالفسق قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦) الَّذِينَ يَتَقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧].

ومما وصف به تارك المأمورات أو فاعل المنهيات، ما جاء في هذه الآية الكريمة بالحجرات، فإنه سبحانه وصف الوليد بكونه فاسقاً لأنه كذب في قوله، وكاد يترتب على كذبه شر وفساد، كما ورد في سبب نزول الآية.

٥- جيء بكلمة ﴿فَنُصِّحُوا﴾ ولم يقل سبحانه: (فتصيروا) لأن ذلك أبلغ، باعتبار أن أشنع الندم وأقبحه هو ما استقبل الإنسان صباحاً وقت انتباهه وفراغه، وإقباله على مهامه، ومن ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِطِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧] وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ [الحجر: ٨٣-٨٤].

(١) البخاري في الأدب المفرد، باب المنام، (١٣٦/١) رقم (١٣٥).

كما أن النبأ المبشر بالخير في الصباح هو أقوى في السرور وفي الفرح عند السامع، قال جل وعلا: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

٦- قال بعض العلماء: في الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلاً^(١)، لأنه إنما أمر فيها بالتثبت عند نقل خبر الفاسق، ومن ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعاً، لأن الخبر أمانة والفسق قرينة يبطلها.

٧- اختلف العلماء في سماع شهادة من لا تعرف عدالته الباطنة:

فقال أبو حنيفة: يسأل الحاكم عن باطن عدالتهم في الحدود والقصاص قولاً واحداً، وفي ما عدا ذلك لا يسأل عنه إلا أن يطعن الخصم فيهم، ويسمع شهادتهم ويكتفي بعدالتهم في ظاهر أحوالهم.

وقال أحمد في إحدى روايته ومالك والشافعي:

لا يكتفي الحاكم بظاهر العدالة حتى تعرف عدالتهم الباطنة سواء طعن الخصم فيهم أو لم يطعن.

وعن أحمد رواية أخرى: أن الحاكم يكتفي بظاهر الإسلام ولا يسأل عنهم على الإطلاق.

واختلفوا في الجرح المطلق هل يقبله؟

فقال أبو حنيفة ورواية عن أحمد: يقبل.

وقال الشافعي وأحمد: لا يقبل حتى يعين سببه.



(١) العدالة: أي الاستقامة على أمور الدين والأخلاق والمروءات.

المبحث السادس

الإيمانُ نعمة من الله تعالى

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّآ مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

المطلب الأول - الشرع:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾: فلا تكذبوا، فإن الله يعلمه أنباءكم، ويكشف أسراركم فتفتضحون، لذا يجب عليكم أن تعظموه وتوقروه وتنقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم.

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾: معنى طاعة الرسول ﷺ لهم: لو كان الرسول ﷺ يطيعهم في كل ما يروونه ويقترحونه لوقعوا في مشاكل تُعرضهم لمشاق لا تطاق، بل وفي آثام عظام.

العنت: الإثم، والعنت أيضاً: الفجور والزنى، كما في قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصِيرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥].

والعنت في الأصل: انكسار العظم بعد الجبر، فاستعير لكل مشقة وضرب. والعنت أيضاً: الوقوع في أمر شاق.

ومعنى الآية: لو يسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنا لكم مشقة وإثم، فإنه لو قتل القوم الذين سعى بهم الوليد بن عقبة إليه لكان خطأ، وهذا

يدل على أن بعض المؤمنين زينوا لرسول الله ﷺ الإيقاع بيني المصطلق، وتصديق قول الوليد ﷺ، وأن بعضهم كانوا يتصنون، ويزعجهم جدّهم في التقوى عن التجرؤ على ذلك. والتعبير بالمضارع دليل على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه، بدليل قوله: ﴿فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾: هذا خطاب للمؤمنين الصادقين المخلصين، الذين لا يكذبون النبي ﷺ، ولا يخبرونه بالباطل.

﴿وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: حسّنه إليهم بتوقيفه حتى اختاروه، ولأجل ثباتهم عليه وتمكين حبه في قلوبهم زينه لهم، وذلك بأن حسّنه في قلوبهم حتى شاهدت قلوبهم زينة الإيمان الحسنة فعشقتة فلم تنفك عنه ولم ينفك عنها.

فالله سبحانه هو المتفرد بخلق ذوات الخلق، وخلق أفعالهم وصفاتهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم لا شريك له في ملكه، ولا مناوئ له في سلطانه، فمنه الهداية للإيمان والتوفيق للطاعة.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: الفسوق يريد به الكذب خاصة. والفسوق كل ما خرج عن الطاعة، مشتق من فسقت الرطبة: خرجت من قشرها.

﴿وَالْعَصِيَانَ﴾: جميع المعاصي على جميع أنواعها، وتفاوت مراتبها ودرجاتها.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الرّٰشِدُونَ﴾: إشارة إلى المؤمنين المحبب إليهم الإيمان، المزيّن في قلوبهم، أي: أولئك هم المهتدون إلى محاسن الأعمال ومكارم الأخلاق.

والرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه. من الرشادة وهي الصخرة.

﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ٨: أي فعل الله ذلك بكم فضلاً منه ونعمة عليكم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية.

﴿حَكِيمٌ﴾: في أقواله وأفعاله وشرعه وأحكامه.

المطلب الثاني - الإعراب:

﴿وَأَعْلَمُوا﴾: الواو: حرف عطف. (اعلموا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله.

﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾: أن واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سدّ مسد مفعولي (اعلموا)، والجملة الفعلية هذه معطوفة على جملة: (تبينوا..).

﴿فِي كَثِيرٍ﴾: متعلقان بالفعل ﴿يُطِيعُكُمْ﴾.

﴿مِّنَ الْأَمْرِ﴾: متعلقان بـ ﴿كَثِيرٍ﴾ أو بمحذوف صفة له.

﴿يُطِيعُكُمْ﴾ الجملة الفعلية ابتدائية أو جملة شرط غير ظرفي لا محل لها.

﴿لَعَنْتُمْ﴾: اللام واقعة في جواب ﴿لَوْ﴾.

(عنتم): فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب ﴿لَوْ﴾ لا محل لها.

﴿لَوْ﴾ ومدخولها في محل نصب حال من الضمير المجرور في: ﴿فِيكُمْ﴾.

﴿وَلَكِنَّ﴾: الواو حرف عطف. (لكن): حرف مشبه بالفعل للاستدراك.

﴿اللَّهُ﴾: اسمها.

﴿حَبَبَ﴾: الجملة الفعلية في محل رفع خبر (لكن).

والجملة الاسمية (لكن..) معطوفة على ما قبلها.

﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له.

﴿هُمْ﴾: ضمير فصل لا محل له من الإعراب.

﴿الرَّشِدُونَ﴾: خبر ﴿أُولَئِكَ﴾.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾: الجملة الاسمية مستأنفة معترضة لا محل لها.

﴿فَضَلًا﴾: مفعول لأجله، متعلق بفعل ﴿حَبَّ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ﴾.

﴿مِنَ اللَّهِ﴾: متعلقان بـ﴿فَضَلًا﴾، أو بمحذوف صفة له.

﴿وَنِعْمَةً﴾: معطوف على: ﴿فَضَلًا﴾.

﴿وَاللَّهُ﴾: الواو حرف استئناف. (الله): مبتدأ.

﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: خبران له، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها.

المطلب الثالث - الفوائد:

١- جيء بصيغة المضارع لما في ذلك من التنبيه لجميع الأمة عامة، الذين أدركوه في الحياة الدنيا والذين يأتون من بعده، فما قاله ﷺ وحكم به فهو الخير والأفضل، والأحسن ولا أحسن منه، وما رآه حسناً فهو فوق الآراء كلها.

إذا نحن أدلجنا وأنت إمامنا كفى لمطايانا بذكرك حاديا
وإن نحن أضللنا الطريق لغفوة كفى لهدانا نور وجهك هاديا

٢- دل السياق على أنهم كانوا في خبر الوليد صنفين: صنف صدقه وأراد غزو القوم المانعين للزكاة وأشار به، وصنف توقف ولم يتعجل حتى يتبين

صحة النبأ، وإن كلاً من الصنفين سلموا الأمر إلى رسول الله ﷺ بعد الاختلاف بينهم، وردوا الأمر فتحاكموا إلى رسول الله ﷺ.

٣- الإيمان في أصل اللغة: هو التصديق الجازم، وفي عرف الشرع:

هو تصديق النبي ﷺ فيما علم مجيئه به ضرورة من عند الله تعالى، ويدخل في هذا الإيمان بالله تعالى، وبوجوب وجوده وبوحدانيته سبحانه، واتصافه بصفات كماله، وتنزهه عن كل نقصان، والإيمان بالملائكة، والإيمان بالنبي ﷺ، وبكتب الله تعالى، واليوم الآخر وبالقدر... وما وراء ذلك.

٤- انتقل من الخطاب إلى الخبر فقال: ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني هم الذين وفقهم الله فحبب إليهم الإيمان وكره إليهم الكفر، أي قبحه عندهم.

٥- من وجوه البلاغة في الآية، الطباق بين حب وكره.

٦- من الواضح أنه لا يراد بالفسق والعصيان في هذه الآية فسق الكفر، ولا معصية الكفر، لأنهما معطوفان على الكفر، والعطف يقتضي المغايرة.

٧- في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

دليل على أن الإيمان لا يعتبر عند الله تعالى إلا إذا كان قائماً على أساس الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ، وحب كل ما جاء عن الله تعالى وعن رسول الله ﷺ، ويكره قلبه الكفر كما يكره أن يلقي جسمه في النار، وكذلك يكره الفسوق والعصيان لأنهما قد يوصلانه إلى الكفر.

٨- في قوله تعالى في آخر الآية: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ دفع اعتراض وشبهة قد تعرض للإنسان بأن يقول: ما دام أمر الإيمان وحبه، والرشد وحصوله، كل ذلك من فضل الله تعالى ونعمته فلم لا يتفضل سبحانه على جميع العباد؟؟!

فأجاب سبحانه بأنه ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: هو عليم بمواضع فضله ومواقع نعمته الخاصة وهي الإيمان، فيضع ذلك في موضعه، فحجة الله تعالى قائمة على العباد كما تقدم في قوله تعالى: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ عَائِنِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِعَايِنَتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وهكذا سبحانه هو أعلم حيث يجعل الإيمان ونعمته ومحبه في القلب، كما أن الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته.

٩- ذكر الله تعالى هذه الأشياء الثلاثة في مقابلة الإيمان الكامل المزيّن في القلب المحب إليه. والإيمان الكامل ما اجتمع فيه ثلاثة أمور:

تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان، فقوله تعالى:

﴿وَكُفْرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ﴾ و﴿حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ﴾ هو التصديق بالجنان.

وقوله تعالى: ﴿وَالْفُسُوقَ﴾ أي الكذب وهو الإقرار باللسان.

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَصِيَانِ﴾ هو العمل بالأركان.

فكره للمؤمنين الصادقين العصيان، وحبب إليهم العمل الصالح

بالأركان، وهذا من فضله وكرمه وجوده وإنعامه، كما قال تعالى:

﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾



المبحث السابع

الإصلاح بين المؤمنين

﴿وإن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفْتِنُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ

اللَّهُ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾

في هذه الآية الكريمة، يرشد الله تعالى عباده لما فيه صلاح أمور دينهم، وإصلاح مجتمعهم، ليتباعدوا عن كل ما فيه تفرقة لجمعهم، وعن كل ما يؤدي إلى انقسامهم وبغضهم.

فبعد ما أمر سبحانه بالتثبت في نقل الأخبار التي قد توقع في المخاوف والأخطار، فإن منها أخباراً صحيحة، ومنها أخباراً فاسدة، ومنها الصدق، ومنها الكذب، ومنها أخباراً باطلة ذميمة يشبه أن تكون من باب النسيئة، فتورث في النفوس البغضاء والحقد، وإذا استحکم ذلك قد يجر إلى القتال فيقعون في بلاء شديد، يفسد أمر العباد والبلاد.

المطلب الأول - الشرح:

الطائفة تتناول الواحد والمثنى والجمع، فهو مما حمل على المعنى دون اللفظ، لأن الطائفة في معنى الجماعة من الناس لا واحد لها من لفظها، مثل: نفر ومعشر.

﴿اقْتَتَلُوا﴾: جمع الضمير في ﴿اقْتَتَلُوا﴾ نظراً إلى المعنى لأن كل طائفة جماعة.

﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾: ثني الضمير في ﴿بَيْنَهُمَا﴾ نظراً إلى اللفظ.

﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ أي: تعدت إحدهما على الأخرى، إذ لم تتأثر بالنصيحة، وأبت الإجابة إلى حكم الله تعالى. والبغي: التطاول والفساد.

﴿فَقَالُوا أَلَمْ تَبْغِ حَتَّى تَفِئَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: ترجع إلى أمر الله تعالى، أي: إلى كتابه الذي جعله حكماً.

﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ أي: رجعت إلى الحق.

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ احملاهما على الإنصاف والرضى بحكمه تعالى.

﴿وَأَقْسِطُوا﴾ أي: اعدلوا. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: العادلين.

المطلب الثاني - سبب النزول:

روى المعتمر بن سليمان عن أنس رضي الله عنه قال: قلت يا نبي الله لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه النبي ﷺ فركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون معه، وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني، فوالله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار (عبد الله بن رواحة رضي الله عنه): والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه، وغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهم حرب بالجرید والأیدی والنعال^(١)، فأنزلت فيهم هذه الآية.

المطلب الثالث - الإعراب:

﴿وَإِنْ﴾: الواو حرف استئناف. (إن) حرف شرط جازم.

﴿طَائِفَتَانِ﴾: فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور بعده مرفوع، والتقدير: (وإن اقتتل طائفتان) وعلامة رفعه الألف نيابة عن الضمة لأنه مثنى، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد.

(١) البخاري، باب من انتظر حتى تدفن، (٣/١٣٨) رقم (٢٦٩١).

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلقان بمحذوف صفة لـ ﴿طَائِفَتَانِ﴾.

﴿أَفْتَلَوْا﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله والألف للتفريق،
والجملة الفعلية لا محل لها، لأنها مفسرة للفعل المحذوف على المعنى.
والجملة المحذوفة لا محل لها، لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط
غير ظرفي.

﴿فَأَصْلَحُوا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (أصلحوها): فعل أمر مبني
على حذف النون، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط.

﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، والهاء في محل جر
بالإضافة والميم والألف حرفان دالان على التثنية، و(إن) ومدخولها كلام
مستأنف لا محل لها.

﴿فَإِنْ﴾: حرف شرط جازم.

﴿بَغَتْ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقاء
ساكنة مع تاء التانيث الساكنة التي هي حرف لا محل له.

﴿إِحْدَاهُمَا﴾: فاعل مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف
للتعذر. والجملة الفعلية لا محل لها.

﴿فَقَنَلُوا...﴾: الجملة في محل جزم جواب الشرط.

﴿تَبَغَّى﴾: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء،
والفاعل مستتر يعود إلى ﴿أَلَتِي﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل.

﴿حَتَّى﴾: حرف غاية وجر تقدر بعدها (أن) مضمرة، وهي بمعنى: إلى
أو لام التعليل.

﴿تَفِيءَ﴾: مضارع منصوب بأن مضمرة بعد ﴿حَقَّ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾: الجملة الاسمية تعليل للأمر لا محل لها.

المطلب الرابع - الفوائد:

١- إن المجتمع الإسلامي لا يخرج عن طبيعته البشرية التي قد تدفع به أحياناً إلى بعض المواقف التي تحيد بأفراده عن الجادة، فتوقع الضغائن والشحناء مع ما يترتب على ذلك من خصومة وشجار وربما قتال في بعض الأحيان، فيجب على كل من له وجهة وسلطة مؤثرة أن يعمل على رأب الصدع وتجاوز الخلاف حفاظاً على رابطة الأخوة الإيمانية. ولا شك أن إصلاح ذات البين من أهم مقومات سلامة المجتمع الإسلامي.

٢- جيء بإن الدالة على الندرة أي أنه لا ينبغي أن يقع بين المؤمنين، ولكن إن حصل شيء من ذلك فلتبادر طائفة من المؤمنين إلى الإصلاح بينهم فوراً.

٣- جيء بقوله تعالى: ﴿أَقْتُلُوا﴾ بالجمع، ولم يقل سبحانه: وإن طائفتان من المؤمنين (اقتلتا) بضمير التثنية والتأنيث، تصويراً لقتالهم بأقبح صورة، فإن (اقتلتا) تدل على أنهما فريقان تقاتلا، ولكن (اقتلتوا) يدل على الجمع، وما أقبح الجمع إذا كان السبب الجامع لهم هو القتال، وكأنهم فريق واحد اجتمعوا ليقتل بعضهم بعضاً.

٤- ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ بأصلح أسباب الصلح، وأقرب طريق يوصل إليه وذلك بالنصح لكل من الطرفين، والتذكير بأنهم مؤمنون والإيمان إنما جاء بالسلم والأمان، وإذا كانت هناك شبهة أزالوها، وإن كانت هناك وشايات أو أخبار ذميمة أو فيها غيمة أبطلوها، ولو أدى ذلك الإصلاح بينهما إلى الكذب، فإن الكذب في باب الإصلاح بين الطرفين أباحه

الشارع الحكيم دفعاً للفساد عن الطرفين كما جاء في الحديث، عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «لا يصلح الكذب إلا في ثلاث: يحدث الرجل امرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، والكذب ليصلح بين الناس»^(١).

٥- أقسط رباعي معناه العدل، واسم الفاعل منه مقسط بمعنى العادل، أو العدل بخلاف (قسط) الثلاثي فمعناه الجور والظلم، يقال: قسط الرجل إذا جار وأقسط إذا عدل، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥].

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولّوا»^(٢).

وعنه أيضاً: أن النبي ﷺ قال: «إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن عز وجل بما أقسطوا في الدنيا»^(٣).

٦- قوله تعالى: ﴿فَقْنِلُوا الَّتِي تَبْغَى حَقَّ تَفَىءٍ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]. أمر بالقتال. وهو فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقيين، ولذلك تخلف قوم من الصحابة رضي الله عنهم عن هذه المقامات، كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة وغيرهم رضي الله عنهم، وصوب ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، واعتذر إليه كل واحد منهم بعذر قبله منه.

(١) الترمذي، باب إصلاح ذات البين، (٣٣١/٤)، رقم (١٩٣٩).

(٢) مسلم، باب فضيلة الإمام العادل، (٧/٦) رقم (٤٧٤٨).

(٣) أحمد (١٥٩/٢) رقم (٦٤٨٥).

٧- يروى أن معاوية رضي الله عنه لما أفضى إليه الأمر، عاتب سعداً على ما فعل، وقال له: لم تكن ممن أصلح بين الفتتين حين اقتتلا، ولا ممن قاتل الفئة الباغية؟ فقال له سعد: ندمت على تركي قتال الفئة الباغية. فتبين أنه ليس على الكل درك^(١) فيما فعل، وإنما كان تصرفاً بحكم الاجتهاد وإعمالاً بمقتضى الشرع.

٨- لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة رضي الله عنهم خطأ مقطوع به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل، وهم كلهم لنا أئمة، وقد أمرنا بالكف عما شجر بينهم، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر، حرمة الصحبة ولنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن سبهم، وأن الله تعالى قد غفر لهم، وأخبر بالرضا عنهم رضي الله عنهم، فقال صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُ اللَّهُ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضاً بَعْدِي، فَمَنْ أَحْبَبَهُمْ فَبِحَبِي أَحْبَبَهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِغَضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ وَمَنْ آذَى اللَّهَ يَوْشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ»^(٢). هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أَنْ طَلَحَ صلى الله عليه وسلم شَهِيدَ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ»^(٣)، فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصياناً، أو خطأ في التأويل وتقصيراً في الواجب عليه، لم يكن بالقتل فيه شهيداً، لأن الشهادة لا تكون إلا بقتلٍ في طاعة، فوجب حمل أمرهم على ما بيناه.

وقد سئل الحسن البصري عن قتالهم فقال:

(١) الدرك (بفتح الراء وسكونها): التبعة.

(٢) الترمذي، (٣٥٧/٥)، رقم (٣٩٥٤).

(٣) ابن ماجه، باب فضل طلحة بن عبد الله، (٤٦/١)، رقم (١٢٥).

(قتال شاهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا).

قال المحاسبي: فنحن نقول كما قال الحسن، ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا، ونتبع ما اجتمعوا عليه، ونقف عند ما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأياً منا، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله ﷻ، إذ كانوا غير متهمين في الدين، ونسأل الله التوفيق.

الفتنة بعد سيدنا عثمان رضي الله عنه

قتل سيدنا عثمان رضي الله عنه والصحابة برآء من دمه، لأنه منع من قتال من ثار عليه وقال: لا أكون أول من خلف رسول الله ﷺ في أمته بالقتل، فصبر على البلاء، واستسلم للمحنة وفدى بنفسه الأمة.

ثم لم يمكن ترك الناس سدى، فعرضت الخلافة على باقي الصحابة الذين ذكرهم عمر رضي الله عنه في الشورى وتدافعوها، وكان علي كرم الله وجهه أحق بها وأهلها، فقبلها حوطة على الأمة أن تسفك دماؤها بالتهارج والباطل، أو يتخرق أمرها إلى ما لا يتحصل. فرمما تغير الدين وانقض عمود الإسلام.

فلما بويع له طلب أهل الشام في شرط البيعة التمكن من قتلة عثمان رضي الله عنه وأخذ القود منهم، فقال لهم علي رضي الله عنه: ادخلوا في البيعة واطلبوا الحق تصلوا إليه. فقالوا: لا تستحق بيعة، وقتلة عثمان معك تراهم صباحاً ومساءً.

فكان علي رضي الله عنه في ذلك أشد رأياً وأصوب قياً، لأن علياً لو تعاطى القود منهم لتعصبت لهم قبائل وصارت حرباً ثالثة، فانتظر بهم أن يستوثق الأمر وتنعقد البيعة، ويقع الطلب من الأولياء في مجلس الحكم، فيجري القضاء بالحق.

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة.

وكذلك جرى لطلحة والزبير، فإنهما ما خلعا علياً من ولاية ولا اعتراضاً عليه في ديانة، وإنما رأيا أن البداءة بقتل أصحاب عثمان أولى.

وقال كثير من أهل العلم: إن الوقعة بالبصرة بينهم كانت على غير عزيمة منهم على الحرب بل فجأة، وعلى سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به، لأن الأمر كان قد انتظم بينهم، وتم الصلح والتفرق على الرضا، فخاف قتلة عثمان رضي الله عنه من التمكين منهم والإحاطة بهم، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا، ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين، ويبدؤوا بالحرب سحراً في العسكرين، وتختلف السهام بينهم، ويصيح الفريق الذي في عسكر علي: غدر طلحة والزبير، والفريق الذي في عسكر طلحة والزبير: غدر علي. فتم لهم ذلك على ما دبروه، ونشبت الحرب، فكان كل فريق دافعاً لمكرته عند نفسه، ومانعاً من إيقاعه بالهلاك، وهذا صواب من الفريقين وطاعة لله تعالى، إذ وقع القتال والامتناع منهما على هذه السبيل.



المبحث الثامن

المؤمنون إخوة

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١٠)

المطلب الأول - الشرع:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أي: في الدين والحرمة، لا في النسب، ولهذا قيل: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تحسبوا ولا تحسبوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخواناً)^(١).

﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ أي: بين كل مسلمين تخصماً.

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾: خافوه وراقبوه في جميع أموركم وأحوالكم وشؤونكم.

﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾: الترجي في هذه الآية وأمثالها إنما هو بحسب عقول البشر، لأن الله تعالى لا يحصل منه ترج ورجاء لعباده، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

لما كان البشر عرضة لأن ينزغ الشيطان بينهم فيختلفوا ويتنازعوا، أمر الله تعالى المؤمنين باعتبار أنهم إخوة في الإيمان، أن يسارعوا إلى الإصلاح بين

(١) مسلم، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابير، (٤/١٩٨٣)، رقم (٢٥٥٩).

أخويهم، فإن الخلاف والنزاع بينهم يترتب عليه أنواع من الفساد، وهلاك العباد، وخراب البلاد.

المطلب الثاني - الإعراب:

﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة. ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾: مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الواو.

﴿إِخْوَةٌ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها.

﴿فَأَصْلَحُوا﴾: الفاء رابطة لجواب الشرط المقدر، والتقدير (إن اقتتلوا فأصلحوا).

(أصلحوا): فعل أمر مبني في محل جزم جواب الشرط المقدر.

﴿بَيْنَ﴾: ظرف متعلق بأصلحوا.

﴿أَخَوَيْكُمْ﴾: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء.

﴿الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾: جملة استئنافية لا محل لها من الإعراب.

(أصلحوا بين) الجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط المقدر.

﴿لَعَلَّكُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل والكاف اسمها.

﴿تُرْحَمُونَ﴾: مضارع مبني للمجهول مرفوع، والواو نائب فاعل.

والجملة الفعلية ﴿تُرْحَمُونَ﴾: خبر (لعل).

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الجملة الاسمية تعليلية لا محل لها.

المطلب الثالث - الفوائد:

١ - خص الاثنين بالذكر بقوله ﷺ: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ دون الجمع،

لأن أقل من يقع منهم الشقاق اثنان، فإذا التزمت المصالحة بين الأقل،

كانت بين الأكثر ألزم، لأن الفساد والشر المترتين على شقاق الجمع أكثر منهما في شقاق الاثنين.

٢- في هذه الآية والتي قبلها دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان، لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين.

قال الحارث الأعور: سئل علي بن أبي طالب عليه السلام وهو القدوة عن قتال أهل البغي من أهل الجمل وصفين: أمشركون هم؟ قال: لا، من الشرك فرُّوا. فقليل له: أمنافقون؟ قال: لا، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً. قيل له: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا.

٣- استدل البخاري وغيره بالآية على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج والمعتزلة، ولأنه ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوماً ومعه على المنبر الحسن بن علي رضي الله عنهما فجعل ينظر إليه مرة، وفي الناس أخرى، ويقول: (إن ابني هذا سيد، ولعل الله تعالى يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)^(١). فكان كما قال صلى الله عليه وسلم، وأصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة والوقاعات المهولة.

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ هذا عقد وثيق صادر من رب العالمين، عهد به إلى جميع المؤمنين على اختلاف ألوانهم وأنسابهم،

(١) البخاري، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم للحسن بن علي رضي الله عنهما، (٢/٩٦٢)، رقم

(٢٥٥٧).

وأمكنّهم وأزمنتهم، واختلاف ألسنتهم، يعلمهم سبحانه ويعلن لهم أن كل مؤمن هو أخ لكل مؤمن، سواء آخاه أم لم يؤاخه، فإن الله تعالى هو الذي آخى بين جميعهم، وسواء عرفه أم لم يعرفه، وسواء صاحبه أم لم يصحبه، وسواء كان هذا من أهل المشرق وذاك من أهل المغرب، أو من الشمال أو الجنوب، وسواء كان عربياً أو غير عربي أو أحمر أو أبيض أو أسود، كل أولئك سواء في هذه الأخوة التي عقدها الله تعالى بينهم، وحق لهم سبحانه حقوقاً فليرعوها، لأنه تعالى سيسألهم عنها.

٥- لما كان البشر عرضة لأن ينزغ الشيطان بينهم فيختلفوا ويتنازعوا، أمر الله تعالى المؤمنين باعتبار أنهم إخوة في الإيمان، أمرهم أن يسارعوا إلى الإصلاح بين أخويهم، فإن الخلاف والنزاع بينهم يترتب عليه أنواع من الفساد وهلاك العباد، وخراب البلاد فقال تعالى:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟» قالوا: بلى، فقال ﷺ: «إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»^(١).

٦- في قوله تعالى: ﴿ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ أنواع من التأكيد والحض على إصلاح ذات البين:

أ- أتي بالفاء في قوله تعالى: ﴿ فَأَصْلَحُوا ﴾ للإعلام بأن الأخوة الدينية الإيمانية هي موجبة للإصلاح بين المؤمنين.

(١) أبو داود في الأدب، باب إصلاح ذات البين، (٤/٤٣٢)، رقم (٤٩١٩)، والترمذي في صفة القيامة، باب سوء ذات البين هي الحالقة، (٤/٣٣٠)، رقم (٢٥١١).

ب- أتى بالاسم الظاهر موضع الضمير مضافاً للمأمورين فقال سبحانه: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ ولم يقل: فأصلحوا بينهم، وذلك لتقوية التأكيد الموجب للإصلاح، والتحضيض على المبادرة للإصلاح بين الإخوة.

ت- تخصيص الاثنين بالذكر لبيان وجوب الإصلاح بين الاثنين وعدم التساهل فيه، وذلك لدفع تضاعف الفتنة وانتشار الخلاف فيما بين الجموع.

٧- القول في (لعل) فيه ثلاث تأويلات:

أ- أن لعل على بابها للترجي والتوقع، والترجي والتوقع إنما هو في حيز البشر، فكأنه قيل لهم: افعلوا ذلك على الرجاء منكم والتوقع أن تعقلوا، وأن تذكروا، وأن تتقوا.

ب- أن العرب استعملت لعل مجردة من الشك بمعنى: لام كي، فالمعنى: لتعقلوا، ولتذكروا، ولتتقوا.

ت- أن لعل إذا صدرت عن الله تعالى، داخلية على فعل من أفعاله سبحانه فإنها تدل على تحقق الفعل ووقوعه لا محالة، لأن ذلك يكون من باب الوعد الإلهي لعباده، والله تعالى لا يخلف وعده.

حقوق الإخوة العامة

جاء بيانها في الآيات القرآنية، وفي الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

١- بعضهم أولياء بعض، أي أنهم بينهم الولاء والمحبة والنصرة، فهم أحباب لبعضهم، وأنصار على الحق لبعضهم، ونصحاء لبعضهم، ومتعاونون مع بعضهم، بينهم التراحم والتوَادد والتعاطف والتلاطف، يأْمرون بالمعروف ولكن عن طريق المعروف والنصيحة، لا على سبيل العنف والفضيحة.

قال رسول الله ﷺ: «تري المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»^(١).

٢- المؤمن لا يحسد أخاه المؤمن، وقد حذر النبي ﷺ من ضرر الحسد المذموم الذي يوقع العداوة بين الإخوان، فقال ﷺ: «إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمع في جوف عبد مؤمن غبار في سبيل الله وفيح جهنم، ولا يجتمع في جوف عبد الإيمان والحسد»^(٣).

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «دب إليكم داء الأمم قبلكم، الحسد والبغضاء هي الحالقة، لا أقول: تخلق الشعر ولكن تخلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم»^(٤).

٣- المؤمن لا يهجر أخاه المؤمن، قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيصد هذا -أي يعرض- ويصد هذا،

(١) البخاري، باب رحمة الناس والبهائم، (٢٢٣٨/٥)، رقم (٥٦٦٥).

(٢) أبو داود، باب في الحسد، (٢٧٦/٤)، رقم (٤٩٠٣).

(٣) ابن حبان في فضل الجهاد، (٤٦٦/١٠)، رقم (٤٦٠٦).

(٤) مسلم في الإيمان: باب بيان أن لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، (١/٧٤)، رقم (٥٤).

وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»^(١).

وعن أبي خراش السلمي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من هجر أخاه سنة فهو كَسَفْكَ دمه»^(٢).

قال العلماء: وهذا الهجر المنهي عنه هو التقاطع بسبب أمور دنيوية، فأما الهجر لأجل الدين فيجوز الزيادة على ثلاث: إذا كان هذا الهجر فيه زجر للمهجور وردع له عن فسادِه وغيه، ويكون هذا الهجر سبباً لرجوعه عن غيه وضلاله، وأما إذا كان الهجر سوف يزيده فساداً أو انطلاقاً في الغي ومخالفة لأوامر الله، ويحمل المهجور على فساد أكبر مما هو عليه فلا يجوز الهجر، بل الواجب المواصلة بوجه من الوجوه بقصد نصحه والتقليل من فسادِه وغيه.

٤- المؤمن لا يبغض أخاه المؤمن ولا يشاحنه، فالبغضاء والشحناء تمنع رفع الأعمال الصالحة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعرض الأعمال في كل خميس واثنين، فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً إلا من كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال: اتركوا هذين حتى يصطلحا»^(٣).

٥- المؤمن لا يظلم أخاه المؤمن، قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره»^(٤).

فهذا الحديث تأكيد لعقد الأخوة بين المسلم والمسلم، فكيف يظلم

(١) البخاري في المحجة، (٢٢٥٦/٥)، رقم (٥٧٢٧).

(٢) أبو داود، باب فيمن يهجر أخاه المسلم، (٢٧٩/٤)، رقم (٤٩١٥).

(٣) مسلم، باب النهي عن الشحناء والتهاجر، (١٩٨٦/٤)، رقم (٢٥٦٥).

(٤) مسلم، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، (١٩٨٦/٤)، رقم (٢٥٦٤).

المسلم أخاه؟! سواء كانت تلك الظلامة تتعلق بماله أو دمه أو عرضه، وسواء في ذلك ظلم القول أو ظلم العمل، فإن ذلك كله حرام.

عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»^(١).

٦- (ولا يخذله) بل ينصره بالحق على الوجه الحق، وقد ورد عن أبي طلحة وجابر رضي الله عنهما قالاً: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ يخذل امرأ مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمة، وينتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله تعالى في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمة، إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته»^(٢).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على أن ينصره أذله الله تعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة»^(٣).

٧- (ولا يكذبه) فإن الكذب فيه غش وخيانة ومكر وخديعة.

عن النواس بن سمعان عن النبي ﷺ أنه قال: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت به كاذب»^(٤).

وعن عبد الرحمن بن الحارث السلمي رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فدعا بطهور فغمس يده فتوضأ فتتبعناه فحسوناه «أي شربنا من وضوئه ﷺ»،

(١) مسلم في تحريم الظلم، (٤/١٩٩٤)، رقم (٢٥٧٧).

(٢) سنن أبي داود في النهي عن التجسس، (٤/٢٧١)، رقم (٤٨٨٤).

(٣) أحمد في حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه، (٣/٤٨٧)، رقم (١٦٠٢٨).

(٤) أبو داود في المعارض، (٢/٧١١)، رقم (٤٩٧١).

فلما فرغ قال النبي ﷺ: «وما حملكم على ما صنعتم؟» قلنا: حب الله ورسوله، قال: «فإن أحببتهم أن يحبكم الله ورسوله فأدوا إذا ائتمتم، واصلقوا إذا حدثتم، وأحسنوا جوار من جاوركم»^(١).

٨- (ولا يحقره) فإن الاحتقار للمسلم ناشئ عن الكبر واستصغار الغير، كما قال ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(٢).

ويقول ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»^(٣). بأي نوع من أنواع الاحتقار والاستهزاء، أو السخرية منه، أو الغيبة، أو النميمة، أو الطعن فيه، أو النظر إليه بعين الصغار، أو الترفع عليه، أو التطاول عليه بالكلام، أو السب والشتم، أو اللعن، أو الكلام البذيء...

٩- ولا يروعه ولو مازحاً، عن عامر بن ربيعة ﷺ أن رجلاً أخذ نعل رجل فغيبها وهو يمزح فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لا تروعوا المسلم فإن روعة المسلم ظلم عظيم»^(٤).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من أخاف مؤمناً كان حقاً على الله أن لا يؤمنه من أفراع يوم القيامة»^(٥).

١٠- والمؤمن لا يدخل الحزن على قلب أخيه المؤمن، فقد نهى رسول الله ﷺ عن كل ما يدخل الحزن على المسلم.

(١) الطبراني في الأوسط، (٣٢٠/٦)، رقم (٦٥١٧).

(٢) مسلم في تحريم الكبر وبيان، (٩٣/١)، رقم (١٤٧).

(٣) مسلم في تحريم ظلم المسلم وخذله، (١٩٨٦/٤)، رقم (٣٢).

(٤) الطبراني (٢٥٣/٦)، وهو ضعيف.

(٥) الطبراني في الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، (٢٤/٣)، رقم (٢٣٥٠).

عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجأ اثنان دون الثالث، فإن ذلك يحزنه»^(١).

١١- المؤمن يصلح بين إخوانه إذا تعرضوا لترغ الشيطان، ولا يزيد الأمر سوءاً بالغيبة والنميمة بينهم، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والقيام؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال ﷺ: «إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الخالقة»^(٢).

١٢- ومن حقوق الأخوة الإيمانية النصيحة فهي واجبة على كل مسلم. عن جرير بن عبد الله قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»^(٣).

وعن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة» ثلاثاً. قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(٤). قال العلامة الخطابي: النصيحة هي كلمة يعبر بها عن جملة، وهي إرادة الخير للمنصوح له، وأصل النصح في اللغة: الخلوص، يقال: نصحت العسل إذا خلصته من الشمع.

فمعنى النصيحة لله تعالى: صحة الاعتقاد في وحدانيته، وإخلاص النية في عبادته. والنصيحة لكتابه: الإيمان به والعمل بما فيه.

(١) مسلم، تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه، (٤/١٧١٨)، رقم (٢١٨٤).

(٢) ابن حبان، باب ذكر الإخبار عما يجب على المرء من لزوم إصلاح ذات البين، (٤٨٩/١١)، رقم (٥٠٩٢).

(٣) مسلم، بيان أن الدين النصيحة، (١/٧٥)، رقم (٢٠٨).

(٤) البيهقي، باب النصيحة لله ولكتابه ولرسوله، (٨/١٦٣)، رقم (١٦٤٣٣).

والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته ﷺ، وبذل الطاعة له فيما أمر به أو
نهى عنه. والنصيحة لعامة المسلمين: هي إرشادهم إلى مصالحهم.
وقال العلامة الحافظ ابن الصلاح: (النصيحة، هي كلمة جامعة، تتضمن
قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير).



المبحث التاسع

من الأخلاق الإيمانية (١)

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١١)

المطلب الأول - الشرح:

قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾.

﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي معتقداً وأسلم باطناً، وخيراً عند الله وعِظَمَ .
والسخرية: الاستهزاء، سَخَرْتُ مِنْهُ أَسَخَرْتُ سَخَرًا (بالتحريك).
وقال الأخفش: سَخَرْتُ مِنْهُ وَسَخَرْتُ بِهِ، وَضَحَكْتُ مِنْهُ وَضَحَكْتُ بِهِ، وَهَزَيْتُ مِنْهُ وَهَزَيْتُ بِهِ، كُلُّ ذَلِكَ يُقَالُ.
والاسم السُّخْرِيَّةُ والسُّخْرِي والسُّخْرِيّ.
وفلان سُخْرَةٌ: يُتَسَخَّرُ فِي الْعَمَلِ. يُقَالُ: خَادِمُ سُخْرَةٍ.
ورجل سُخْرَةٌ أَيْضاً يُسَخَّرُ مِنْهُ. وَسُخْرَةٌ (بفتح الحاء) يَسْخَرُ مِنَ النَّاسِ.
السخرية: هي الهزاء والاحتقار للغير قولاً أو فعلاً، بحضرة ذلك الغير.
والمعنى: لا يستهزئ غني بفقر، ولا مستور عليه بذنب بمن لم يستر، ولا ذو حسب بلئيم، وأشباه ذلك مما ينتقصه به، ولعله عند الله خير منه، وهو فحوى قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾.

عن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟! كل ضعيف مستضعف لو يقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟! كل عُتْلٍ جَوَّازٍ مستكبر»^(١).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في جنازة، فقال: «ألا أخبركم بشر عباد الله؟ اللفظ المستكبر. ألا أخبركم بخير عباد الله؟ الضعيف المستضعف ذي الطمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره»^(٢).

وقد تكون السخرية بإحدى الطرق التالية:

- ١- بالنظر إلى المسخور منه بعين النقص.
- ٢- التنبيه على ما فيه من العيوب والنقائص على وجه يُضحك منه الحاضرين.
- ٣- وقد تكون بالمحاكاة بالفعل، أو بالقول، أو الإشارة، أو الإيماء.
- ٤- الضحك على كلام المسخور منه إذا غلط، أو الضحك على صفته، أو دمامة صورته.

﴿وَلَا فِسَاءٌ مِّنْ فِسَاءٍ﴾ أي: لا يستهزئ نساء من نساء. وقد أفرد الله تعالى النساء بالذكر لأن السخرية منهن أكثر. وقد وردت في القرآن الكريم أوامر كثيرة بصيغة الجمع الذي يشمل الجنسين كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١] فشمل الجميع، أما بموضوع السخرية فقد ذكر النوعين الرجال والنساء.

(١) البخاري في الكبير، (٢٢٥٥/٥) رقم (٥٧٢٣).

(٢) مسلم، في فضل الضعفاء والخاملين، (٢٠٢٤/٤)، رقم (٢٦٢٢). والأحاديث في ذلك كثيرة ومستفيضة.

﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ﴾ أي: بئس الاسم أن تلقبوا إخوانكم بألقاب الذم. روي عن النبي ﷺ أنه كان يعجبه أن يدعى الرجل بأحب أسمائه إليه^(١). ولهذا كانت التكنية من السنة، والأدب الحسن. قال عمر رضي الله عنه: أشيعوا الكُنى فإنها سنة. ومعنى التكنية أن تقول: يا أبا فلان.

والمعنى:

١- بئس الاسم يُذكر به أحدكم وهو الفسوق الذي أتى به بسبب ارتكابه النهي فهو فاسق بعد الإيمان أي: بعدما آمن واتصف بكونه مؤمناً، وفي هذا ذم شديد للنازب واللامز والساخر، على اجتماع الفسق والإيمان فيه، بمعنى أنه لا ينبغي أن يجتمعا في نفس واحدة؛ لأن الإيمان يأبى الفسق.

٢- بئس أن يسمى الرجل كافراً أو زانياً بعد إسلامه وتوبته، أو يسمى بأسماء الحيوانات ونحو ذلك من النبز بالألقاب السيئة بعد كونه مؤمناً، فإن النبز بذلك فسوق، ويسمى قائله فاسقاً.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ﴾ أي: عن هذه الألقاب التي يتأذى بها السامعون.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: لأنفسهم بارتكاب هذه المناهي، ومعصيتهم ومخالفتهم لصريح الكتاب والسنة التي تنهى عن ذلك.

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا يعب بعضكم بعضاً، ولا يطعن بعضكم في بعض، والمراد بالأنفس: الإخوان هنا، واللمز: العيب وهو ذكر معائب الغير والطعن فيه، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ [التوبة: ٧٩].

(١) البخاري في الأدب المفرد، باب يدعى الرجل بأحب أسمائه إليه، (٢٨٥/١)، رقم (٨١٩).

قال الطبري: اللمز باليد والعين واللسان والإشارة، والهمز لا يكون إلا باللسان.

واللمز والهمز متقاربان في المعنى، فإذا اجتمعا خص كل منهما بمعنى، كما قال عنه: ﴿وَبَلِّ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةً﴾ [الهمزة: ١]، وإذا أفرد أحدهما شمل الآخر كما في قوله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بَنِيمٍ﴾ [القلم: ١١].

والمعنى: لا تعيبوا إخوانكم من المسلمين لأنهم كأفئسكم، فإذا عاب عائب أحداً بعيب فكأنه عاب نفسه، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] أي لا يقتل بعضكم بعضاً، لأن المؤمنين كنفس واحدة فكأنه يقتل أخيه قاتل نفسه. وكقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

قال عنه: «المؤمنون كرجل واحد، إذا اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(١).

وقال عنه: «يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه، ويدع الجذع في عينه»^(٢).
وقيل: من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره.

﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾

النَّبَزُ (بالتحريك) اللقب، وهو مختص بلقب السوء عرفاً، والجمع الأنباز. والنَّبَزُ (بالتسكين) المصدر، تقول: نَبَزَهُ يَنْبِزُهُ نَبْزاً، (بالضم وبالكسر) أي لقبه.

ويقال: النَّبَزُ والنَّبَزُ لِقَبُ السوء.

(١) مسلم في تراجم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٤/١٩٩٩)، رقم (٢٥٨٦).

(٢) البخاري في الأدب المفرد، باب البغي، (٣/٣١٤)، رقم (٩١٨).

وتنازوا بالألقاب: أي لُقّب بعضهم بعضاً بألقاب السوء.

والألقاب: جمع لقب، وهو في الأصل ما أشعر بمدح أو ذم، ولكن المراد به هنا لقب السوء الذي يتأذى به المخاطب ويكرهه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: التناز بالألقاب أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب عنها، فنهى أن يعير بما سلف من عمله، يدل عليه ما روي أن النبي ﷺ قال: «من عير مؤمناً بذنب تاب منه كان حقاً على الله أن يبتليه به ويفضحه فيه في الدنيا والآخرة»^(١).

وقيل: هو قول الرجل للرجل: يا فاسق، يا منافق، يا كافر.

وقيل: هو أن تقول لأخيك: يا كذا (بأسماء الحيوانات).

والذي يضبط هذا كله: أن كل ما يكره الإنسان إذا نودي به فلا يجوز لأجل الأذية.

المطلب الثاني - سبب النزول:

١- عن أنس رضي الله عنه أنه بلغ صفية رضي الله عنها أن حفصة بنت عمر رضي الله عنهما قالت عنها: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك؟» قالت: قالت لي حفصة: إني بنت يهودي، فقال النبي ﷺ: «وإنك لابنة نبي، وعمك لني، وإنك لتحت نبي، ففيم تفتخر عليك؟!».

ثم قال: «اتقي الله يا حفصة»^(٢).

(١) الترمذي، (٦٦١/٤)، رقم (٢٥٠٥) نحوه بلفظ: من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله.

(٢) الترمذي، فضل أزواج النبي ﷺ، (٧٠٩/٥)، رقم (٣٨٩٤).

وفي رواية أخرى: «هلا قلت: إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي محمداً»^(١) فأنزل الله هذه الآية ﴿وَلَا فِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ﴾.

٢- عن أبي جبيرة بن الضحاك الأنصاري رضي الله عنه قال: فينا نزلت هذه الآية في بني سلمة، قدم علينا رسول الله ﷺ وليس من رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فجعل رسول الله ﷺ يقول يا فلان، فيقولون: مه يا رسول الله إنه يغضب من هذا الاسم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ...﴾^(٢).

المطلب الثالث - الإعراب:

﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿يَسْخَرُ﴾: مضارع مجزوم بلا الناهية.

والجملة الفعلية ابتدائية لا محل لها، كالجملة الندائية قبلها.

﴿عَسَى﴾^(٣): فعل ماض تام هنا مبني على فتح مقدر على الألف.

﴿أَنْ يَكُونُوا﴾ في تأويل مصدر في محل رفع فاعل ﴿عَسَى﴾.

﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا﴾ الجملة الفعلية تعليل للنهي لا محل لها.

﴿وَلَا﴾ الواو حرف عطف، (لا): ناهية داخلية على فعل مقدر محذوف لدلالة ما قبله عليه.

﴿فِسَاءٌ﴾: معطوف على قوم، وهو في المعنى فاعل للفعل المحذوف.

(١) النسائي في الافتخار، (٢٩١/٥)، رقم (٨٩١٩).

(٢) أبو داود في الألقاب، (٧٠٩/٢)، رقم (٤٩٦٢).

(٣) تأتي هذه الأفعال تامة تكتفي بفاعلها إذا تلاها المصدر المؤول من أن والفعل دون أن يفصل بينها وبين المصدر فاصل، ويكون المصدر هو الفاعل. ولو كانت (عسى) في الآية ناقصة لبرز فيها الضمير. نحو: عسوا أن يكونوا، وعسين أن يكن.

﴿مِنْ نِّسَاءٍ﴾: متعلقان بالفعل المقدر.

﴿أَنْ يَكُنَّ﴾: في تأويل مصدر في محل رفع فاعل: ﴿عَسَى﴾.

﴿نَلْعِزُوا﴾: مضارع مجزوم بلا الناهية، علامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله.

﴿يَتَسَّ﴾: فعل ماض جامد دال على إنشاء الدم.

﴿الْإِسْمُ﴾: فاعله والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها.

﴿يَتَسَّ الْإِسْمُ﴾: الجملة الفعلية خبر لمبتدأ محذوف يدل عليه ما سبق في الآية وتقدير الجملة: (التنايز بالألقاب بئس).

﴿الْفُسُوقُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو الفسوق، وجملة (هو الفسوق): تفسيرية لـ ﴿الْإِسْمُ﴾.

﴿بَعْدَ﴾: ظرف زمان متعلق بمحذوف حال من ﴿الْفُسُوقُ﴾.

﴿وَمَنْ﴾: اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ.

﴿لَمْ﴾: حرف نفي وقلب وجزم.

﴿يَتَّبُ﴾: مضارع مجزوم بلم وهو فعل الشرط.

﴿فَأُولَئِكَ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. والجملة الاسمية: (أولئك هم الظالمون) في محل جزم جواب الشرط.

وخبر المبتدأ (من) جملة الشرط وجوابه.

المطلب الرابع - الفوائد:

١ - أهم أسباب احتقار الغير والسخرية به هو الكبر، والتعاضم في نفس صاحبه، قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». فقال رجل: يا رسول الله، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة؟ قال: «إن الله تعالى جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(١).

٢ - نهي سبحانه المؤمنين والمؤمنات عن السخرية بالغير، سواء كان سبب السخرية يتعلق بالمال أو الجاه، أو بذادة^(٢) الثياب، أو دمامة الصورة، أو نقص في المدارك، أو يتعلق بأمور الدين، بأن كان المسخور منه مقصراً في الطاعة والعبادة ونحو ذلك، مما فيه الترفع على الغير والازدراء به. عن أبي ذر رضى الله عنه قال: «أمرني النبي ﷺ بسبع: بحب المساكين، وأن أدنو منهم، وأن لا أنظر إلى من هو فوقى - أي في الدنيا - وأن أصل رحمي وإن جفاني، وأن أكثر من: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها من كنز تحت العرش، وأن أقول الحق وإن كان مرأى، ولا أخاف في الله لومة لائم، وأن لا أسأل الناس شيئاً»^(٣).

٣ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ...﴾

يلاحظ في هذا النص القرآني الكريم أن كل نهي فيه قد انفرد بلون تعبيرى ذي دلالة خاصة قابلة لأن تكون شاملة للمنهيّات الأخرى؛ ففي السخرية قال

(١) مسلم في تحريم الكبر وبيان، (٦٥/١)، رقم (١٧٩).

(٢) البذادة: الرثانة.

(٣) الطبراني في الكبير، (١٥٦/٢)، رقم (١٦٤٨).

﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾، وفي اللمز: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، وفي التنازع: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، وفي الظن المنهي عنه: ﴿أَحْتَبُوا﴾، وفي التجسس: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾، وفي الغيبة: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾.

ويلاحظ أنه يصح في كل منها استعمال التعبيرات الأخرى لتؤدي فيه دلالتها، ومع ذلك فقد اختير لكل قبيحة من هذه القبائح الست صيغة التعبير التي تدل على أبرز صورة من صورها، وهذا من روائع الإعجاز البياني القرآني من حيث استيعاب كل المعاني بأوجز أسلوب مؤثر^(١).

٤- السخرية سلوك اجتماعي شائن يعكر على أفراد المجتمع المسلم صفو علاقتهم ويكدر صفاء مبادئهم؛ فلا يسلم الاعتقاد بأفضلية المسلم وتساويه في الحقوق مع أخيه المسلم مع الاستهزاء به والسخرية منه، فكان لا بد من أن يأتي النهي بلون تعبيرى مميز: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾، ﴿وَلَا فِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ﴾ لأن السخرية تغلب فيها المشاركة، فناسب أن يأتي النهي بهذا اللون.

٥- السخرية حرام، وتعد من الكبائر، ولا بد من عفو المسخور منه. كما أن السخرية بالغير لنقص في عبادته أو قلة طاعاته أو لكثرة زلاته وخطيئاته لا تجوز قطعاً بل هي حرام مطلقاً، فإن المسخور منه عسى أن يكون خيراً من الساخر، وذلك بأن يكون الساخر معجباً بنفسه ومغترّاً بطاعته، في حين أن المسخور منه المذنب مقرر ومعترف بذنبه، خائف من عذاب ربه، كلما تذكر ذنبه انكسر قلبه، وندم على فعله، له ساعة يناجي فيها ربه ويسأله التوبة والإنابة. قال تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

(١) أخلاق وآداب المجتمع الإسلامي من خلال سورة الحجرات.

٦- السخرية منافية لخلق المسلم لأن فيها استعلاءً بغير الحق، ولذلك نبهت الآية الكريمة على ذلك: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مِّمَّنْهُنَّ﴾، أي الخيرية الشرعية، فذلك الذي تسخر منه لأمر دنيوي قد يكون خيراً منك في المعيار الشرعي فيكون استعلاؤك عليه تقديم لأمر الدنيا على أمر الآخرة، وتقديم لهوى النفس على معيار الشرع، هذا بالإضافة إلى ما تحدثه هذه السخرية من غلٍ في النفوس وشرٍ بين الناس.

٧- بين الله تعالى أن من شأن الكفار أن يسخروا ويستخفوا بالمؤمنين، فقال تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيامة وهم في النار: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوا رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَعْظِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَٰكِرُونَ (١١١)﴾ [المؤمنون: ١٠٦-١١١].

٨- كلمة ﴿قَوْمٍ﴾ في القرآن الكريم إنما يراد بها الرجال والنساء جميعاً، وهي تذكر وتؤنث، قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] وتأنيثه باعتبار المعنى وهو أنهم أمة وطائفة وجماعة، وسموا قوماً لأنهم يقومون مع داعيهم بالشدائد والمتاعب، إما بالمعونة معه على كشفها، وإما بالإيذاء والمضايقة إن عارضوه، وهذا حال أعداء الخير والإصلاح في كل زمان ومكان. وقيل: إنه جمع قائم، ثم استعمل في كل جماعة وإن لم يكونوا قائمين.

٩- ناسب إفراد النساء عن الرجال في النهي لأمرين:

أحدهما: كثرة وقوع ذلك منهن فكان عطفهن على القوم لبيان شدة الاهتمام بنهيهن عن هذا السلوك.

والثاني: أن فيه إشارة إلى أن النساء لا يخالطن الرجال في المجالس الاجتماعية فناسب تذكير ونهي كل على حدة.

١٠- مما يترتب على الآية الكريمة ألا يقطع بعيب أحد لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة، فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفاً مذموماً لا تصح معه تلك الأعمال، ولعل من رأينا عليه تفريطاً أو معصية يعلم الله من قلبه وصفاً محموداً يغفر له بسببه. فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية. ويترتب عليها عدم الغلو في تعظيم من رأينا عليه أفعالاً صالحة، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالاً سيئة. بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة، لا تلك الذات المسيئة.

١١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(١).

فلا بد أن يعتقد كل واحد أن المسخور منه ربما كان عند الله خيراً من الساحر، إذ لا اطلاع للناس إلا على الظواهر، ولا علم لهم بالسرائر، والذي يزن عند الله خلوص الضمائر، فينبغي أن لا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رث الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لبق في محادثته، فلعله أخلص ضميراً وأتقى قلباً ممن هو على ضد صفته فيظلم نفسه بتحقيق من وقره الله تعالى.

(١) مسلم في تحريم ظلم المسلم وخذله، (٤/١٩٨٧)، رقم (٢٥٦٤).

عن الحسن عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المستهزئين بالناس يُفتح لأحدهم في الآخرة باب من الجنة، يقال له: هلم، فيجيء بكربه وغمه، فإذا جاء أغلق دونه، ثم يفتح له باب آخر، فيقال له: هلم هلم، فيجيء بكربه وغمه فإذا جاء أغلق دونه، فما يزال كذلك حتى إن أحدهم ليفتح له الباب من أبواب الجنة فيقال له: هلم، فما يأتيه من الإياس»^(١).

١٢- حكم سبحانه على كل من وقع فيما نهى الله تعالى عنه عباده المؤمنين في هذه الآية الكريمة أنه فاسق، سواء في ذلك السخرية واللمز والنبز بالألقاب.

١٣- اللقب على نوعين: لقب ذم، ولقب مدح.

فلقب الذم: ما أشعر بضعة كالجاحظ، وكان ظاهره الكراهة، فإذا أريد به الصفة لا العيب فذلك يجوز النداء له والتعريف به من غير أن يقصد احتقار الملقب، فهناك علماء أجلاء عرفوا بمثل هذه الألفاظ، كالأخفش، والأعمش... والأعرج والأحدب إلخ، وقد استثنى العلماء في مثل هذه الحالات من غلب عليه الاستعمال ولم يكن له فيه كسب يجد في نفسه منه عليه، فجوزته الأمة واتفق على قوله أهل الملة.

أما لقب المدح: فهو ما أشعر برفعة، وهو جائز طبعاً بل مستحب لما ورد من حديث النبي ﷺ: «أنه كان يعجبه أن يدعى الرجل بأحب أسمائه إليه»^(٢)، وقد لُقّب النبي ﷺ كثيراً من أصحابه عليهم السلام، فلقب أبا بكر رضي الله عنه بالصديق، وعمر

(١) البيهقي (٣١٠/٥)، رقم (٦٧٥٧).

(٢) البخاري في الأدب المفرد، باب يدعى الرجل بأحب أسمائه إليه، (٢٨٥/١)، رقم (٨١٩).

ﷺ بالفاروق، وعثمان ﷺ بذي النورين، وعلياً ﷺ بأبي تراب، وخالداً ﷺ بسيف الله، بقوله ﷺ: «نعم عبد الله خالد بن الوليد سيف من سيوف الله»^(١). وخزيمة ﷺ بذي الشهادتين. وحمزة ﷺ بأسد الله، وقال النبي ﷺ عن الصحابي الذي سأله عن نسيانه ﷺ في الصلاة: «ما يقول ذو اليدين»^(٢).

١٤- ينبغي أن يُعلم أن النبز بالكفر والتكفير أمره جد خطير. قال رسول الله ﷺ: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما»^(٣).

١٥- التنازير يقتضي المشاركة بين الاثنين، وعبر بذلك لأن كل واحد سرعان ما يقابل الآخر بقلب ما، فالنبز يفضي في الحال إلى التنازير، بعكس اللمز يكون غالباً من جانب واحد ويستثنى من ذلك: أن يشتهر بقلب لا يسوءه، فيجوز إطلاقه عليه، كالأعمش والأعرج من رواة الحديث.

١٦- أمر النبي ﷺ بتحسين الأسماء، وذلك يدل أيضاً على تحسين الألقاب والكنى. عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تدعون

(١) الترمذي في مناقب خالد بن الوليد، (٦٨٨/٥)، رقم (٣٨٤٦).

(٢) عن أبي هريرة صلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم الظهر ركعتين ثم سلم ثم قام إلى خشبة في مقدم المسجد ووضع يده عليها وفي القوم يومئذ أبو بكر وعمر فهابا أن يكلماه وخرج سرعان الناس فقالوا قصرت الصلاة وفي القوم رجل كان النبي ﷺ يدعو ذا اليدين (لطول في يديه) فقال: يا بني الله أنسيت أم قصرت؟ فقال: لم أنس ولم تقصر. قالوا: بل نسيت يا رسول الله. قال: صدق ذو اليدين، فقام فصلى ركعتين ثم سلم ثم كبر فسجد مثل سجوده أو أطول ثم رفع رأسه وكبر ثم وضع مثل سجوده أو أطول ثم رفع رأسه وكبر، البخاري، باب من يكبر في سجدي السهو، (٦٨/٢)، رقم (٦٠٥١).

(٣) متفق عليه، (٥٧٥٣)، (٦٠).

يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم، فحسنوا أسماءكم»^(١).
وكان ﷺ يكره الاسم القبيح ويغيره، وكذلك يغير اللقب القبيح.
وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن ابنة لعمر رضي الله عنه كان يقال لها: عاصية،
فسمّاها رسول الله ﷺ جميلة^(٢).



(١) ابن حبان، (٣٤/١٣)، رقم (٥٨١٨).
(٢) مسلم، في استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن، (١٦٨٦/٣)، رقم (٢١٣٩).

المبحث العاشر

من الأخلاق الإيمانية (٢)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

المطلب الأول - الشرم:

الاجتناب هو التبعاد عن الشيء، والأصل في ذلك أن يكون الإنسان في جانب، وذلك الشيء المتباعد في جانب آخر، وفي هذه الصيغة قوة في النهي وتأکید للمباعدة عنه.

فقد أمر سبحانه عباده المؤمنين أن يتباعدوا عن كثير من الظن، حتى لا يقعوا في ظنون سيئة فيها قهمة بالسوء لمن يساء به الظن، ومن ليس هو موضع سوء الظن، أي لا تظنوا بأهل الخير سوءاً إن كنتم تعلمون من ظاهر أمرهم الخير. والظن في الشريعة قسمان: محمود ومذموم، فالحمود منه ما سلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه، والمذموم ضده بدليل قوله تعالى:

﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ظَنَّتُمْ أَنَّ السَّوْءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

وينبغي للإنسان أن يحسن ظنه بالناس، ولا يسيء ظنه بهم استجابة لأمر الله تعالى في هذه الآية، وغالباً لا يسيء الظن بالناس إلا من كانت أعماله سيئة.

والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها، أن كل من لم تُعرف له علامة صحيحة وسبب ظاهر كان ذلك الظن السيء به حراماً، واجب الاجتناب، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهده منه الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظن الفساد والخيانة به حرام، بخلاف من اشتهر من الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث، وكثرة التردد للفسقة ومواقع الفسق. قال الإمام الغزالي: (وسوء الظن حرام كسوء القول، ولكن لست أعني به إلا عقد القلب وحكم الظان على غيره بالسوء، أما الخواطر وحديث النفس فمعفو عنه، لما جاء في حديث النبي ﷺ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صُدُورُها ما لم تعمل أو تكلم»^(١)).

وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»^(٢).

وبيّن ﷺ أنه أكذب الحديث، والمعنى أنه أكذب الحديث النفسي إن لم يتكلم به، والقولي إن تكلم به، ومتى تمكن سوء الظن وكثر تحديث نفسه به واستمر على ذلك فلا بد أن يأتي عليه يوم يحدث عن ذلك بقوله، في حين أنه كذب بل هو أكذب الحديث.

وكذلك ينبغي له أن يحسن ظنه بالله تعالى بأن الله يرحمه ويعفو عنه، ففي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»^(٣). ولكن ينبغي أن يقرن حسن ظنه

(١) البخاري، في الخطأ والنسيان في العتاقة، (٢/٨٩٤)، رقم (٢٣٩١).

(٢) متفق عليه، (٢٧٤٨)، (٢٥٦٣).

(٣) مسلم، في فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله، (٤/٢٠٦٧)، رقم (٦٩٢٨).

بالله بحسن العمل، وإلا فهو ظن خاطئ وزعم فاسد، ففي الحديث الشريف يقول الرسول ﷺ: «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل»^(١).

قال الحسن ﷺ: (إن قوماً ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة، ويقول أحدهم إني أحسن الظن بربي وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل)^(٢).

يقول الله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

وقال سعيد بن جبير: (الغرة بالله أن يتمادى الرجل بالمعصية ويتمنى على الله المغفرة).

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ جسست الأخبار وتجسستها أي: تفحّصت عنها، والتجسس: التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر، ومنه الجاسوس. ومعنى الآية: خذوا ما ظهر ولا تتبعوا عورات المسلمين، أي لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه كي يطلع عليه بعد أن ستره الله.

وعن معاوية رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم»^(٣) فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها.

(١) ابن النجار (٤٨/٢) وهو ضعيف.

(٢) فيض القدير، المناوي (١٦٤/١)، رقم (٦٤٦٨).

(٣) الطبراني في الكبير، (٢٥١/١٥)، رقم (٨٥٩).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: صعد رسول الله ﷺ على المنبر فنادى بصوت رفيع سمعته العواتق في البيوت، فقال: (يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفيض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله)^(١).

﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾: اغتابه اغتياياً إذا وقع فيه، والاسم الغيبة، وهي ذكر العيب بظهر الغيب. وفي الآية نهي عن الغيبة، وهي أن تذكر الرجل بما فيه، فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أندرون ما الغيبة) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (ذكرك أخاك بما يكره)، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»^(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا، قال بعض الرواة: تعني قصيرة، فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»^(٣). قالت: وحكيت له إنساناً فقال: «ما أحب أن حكيت لي إنساناً، وإن لي كذا وكذا»^(٤).

المطلب الثاني - الإعراب:

﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾: حرف مشبه بالفعل واسمها وخبرها.

(١) الترمذي (٣٧٨/٤) رقم (٢٠٣٢) وقال: حسن غريب.

(٢) مسلم، في تحريم الغيبة، (٢١/٨)، رقم (٦٧٥٨).

(٣) أبو داود، في الغيبة، (٦٨٥/٢)، رقم (٤٨٧٥).

(٤) أبو داود، في الغيبة، (٦٨٥/٢)، رقم (٤٨٧٥).

والجملة الاسمية تعليل للأمر لا محل لها.

﴿أَجْتَنِبُوا﴾ الجملة لا محل لها من الإعراب جواب الطلب.

(لا): ناهية. ﴿تَجَسَّسُوا﴾: مضارع مجزوم بلا الناهية.

والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿أَجْتَنِبُوا...﴾، لا محل لها مثلها.

﴿أَيُّحِبُّ﴾: الهزمة: حرف استفهام وتوبيخ.

﴿أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ﴾ المصدر المؤول في محل نصب مفعول به.

﴿مَيْتًا﴾: حال من: ﴿لَحْمَ أَخِيهِ﴾، أو من ﴿أَخِيهِ﴾ نفسه.

﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾: الفاء: هي الفصيحة، التقدير: إن صح ما ذكر فأكروهوا.

(كرهتموه): فعل وفاعل والميم علامة جمع الذكور، وحركت بالضم لتحسين اللفظ. فتولدت واو الإشباع، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها مع الشرط المقدر، (إن صح ما ذكر فكرهتموه).

﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ الجملة الاسمية تعليل للأمر لا محل لها.

المطلب الثالث - الفوائد:

١- في قوله تعالى: ﴿أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢]، دليل على أن الظن الحسن لا يدخل تحت الاجتناب، وذلك بأن يظن بالله تعالى خيراً، وأن يظن بعباد الله ظناً حسناً.

٢- حسن الظن بالله تعالى واجب إيماني، لا يكمل الإيمان إلا به، وذلك بأن تظن بالله تعالى خيراً، فإذا علمت ما أمرك به تظن به القبول، وإذا دعوته تظن به الإجابة، وإذا عبدته تظن به إثابته على العبادة، وإذا استغفرته ظننت به المغفرة، دون أن تستبعد ذلك عنه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني»^(١).

وعن جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن»^(٢).

دخل الصحابي واثلة بن الأسقع رضي الله عنه يريد عيادة يزيد بن الأسود، فأخذ يزيد بكفي واثلة رضي الله عنه فجعلهما على وجهه، [فعل ذلك تبركاً بكفي صحابي من أصحاب رسول الله ﷺ، لأن كفي واثلة مست كفي النبي ﷺ بالمصافحة والتقبيل]، فقال له واثلة رضي الله عنه: كيف ظنك بالله تعالى؟ فقال: ظني بالله تعالى والله حسن، فقال واثلة رضي الله عنه: فأبشر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، إن ظن بي خيراً فله، وإن ظن بي شراً فله»^(٣).

٣- حسن الظن بعباد الله تعالى أيضاً واجب إيماني، وهو من حق المسلم على أخيه المسلم أن يظن به حسناً ما لم يظهر منه أمر ظاهر يدل على السوء والشر.

عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً وأنت تجد له في الخير محملاً»^(٤).

(١) البخاري، في قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ

الْغُيُوبِ﴾ المائدة: ١١٦ (٦/٢٦٩٤)، رقم (٦٩٧٠).

(٢) مسلم، في الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، (٤/٢٢٠٥)، رقم (٢٨٧٧).

(٣) ابن حبان، في حسن الظن بالله تعالى، (١/١٨٤)، رقم (٧١٦).

(٤) البيهقي، فصل في ترك الغضب وفي كظم الغيظ والعفو، (٦/٣٢٣)، رقم (٨٣٤٥).

فإذا كان المظنون به ممن شوهده منه الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظن الفساد به والخيانة محرم، بخلاف من اشتهر عند الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه وأن يظن به ظن السوء»^(١).

٤- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ دليل على كون الظن هنا بمعنى التهمة وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداءً ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه ويتبصر ويستمع لتحقيق ما وقع له من تلك التهمة.

٥- ورد عن عبد الرحمن بن عوف^(٣) رضي الله عنه: «أنه حرس مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة، فبينما هم يمشون شب لهم سراج في بيت، فانطلقوا يؤمُّونه، فلما دنوا منه إذا باب مجاف (مغلق) على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط، فقال عمر رضي الله عنه وأخذ بيد عبد الرحمن رضي الله

(١) في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً (إياكم والظن فإن الظن الكذب) زاد مسلم (كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكنه ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) مسلم رقم (٢٥٦٣).

ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب الديات عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ نظر إلى الكعبة فقال (ما أعظمك وأعظم حرمتك، للمسلم أعظم حرمة منك حرم الله دمه وماله وعرضه وأن يظن به ظن السوء) ووردت بعض الروايات أن القائل سيدنا عمر رضي الله عنه. وكذلك رواه البيهقي، (٤٤٤/٣)، رقم (٤٠١٤).

(٣) عبد الرحمن بن عوف: أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين توفي النبي ﷺ وهو راض عنهم، هاجر المجرتين وشهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ، ت (٣١) هـ، الإصابة: (٤٠٨/٢).

عنه: أتدري بيت من هذا؟ قلت: لا، فقال: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف، وهم الآن شرب فما ترى؟ قال عبد الرحمن: أرى أننا قد أتينا ما نهي الله عنه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ فقد تجسسنا، فانصرف عنهم عمر رضي الله عنه وتركهم»^(١).

٦- الظن في الشريعة قسمان: محمود ومذموم، فالمحمود منه ما سلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه. والمذموم ضده، بدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

وقوله عز وجل: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوَاءً وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢]. وقال النبي ﷺ: «إن كان أحدكم مادحاً أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلاناً والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً»^(٢).

وقال ﷺ: «إذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا تطيرت فامض»^(٣). وأكثر العلماء على أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، وأنه لا حرج في الظن القبيح بمن ظاهره القبح.

(١) البيهقي، باب ما جاء في النهي عن التجسس، (٣٣٣/٨)، رقم (١٧٤٠٣).

(٢) البيهقي، الباب الرابع والثلاثون، (٢٢٦/٤)، رقم (٤٨٦٩).

(٣) الطبراني في الأوسط، (٢٢٨/٣)، رقم (٣٢٢٧)، قال الهيثمي (٧٨/٨): فيه إسماعيل بن قيس الأنصاري وهو ضعيف، و أبو داود ورسته في الإيمان عن الحسن مرسلًا [رسته، بالتاء المربوطة: لقب الحافظ عبد الرحمن بن عمر الأصبهاني، كما في شرح المناوي للحديث ١٧٥١].

ورد عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (من تعرض للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن، ومن كتم سره كان الخيار إليه، ومن أفضى سره كان الخيار عليه، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك، ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً، وكن في اكتساب الأصدقاء فإنهم جنة عند الرخاء، وعدة عند البلاء، وآخ إخوانك على قدر التقوى، وشاور في أمرك الذين يخافون الله تعالى).

٧- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ قرئ ﴿ولا تحسسوا﴾ بالحاء.

واختلف هل هما بمعنى واحد أو بمعنيين؟

أ - هما بمعنى واحد، التجسس البحث عما يكتُم عنك، والتحسس (بالحاء) طلب الأخبار والبحث عنها، والاستماع إلى حديث الغير.

ب - التجسس هو تتبع الظواهر، والتحسس تتبع البواطن.

ج - التجسس هو تفحص أخبار الناس بغيرك، والتحسس أن تتفحص عنها بحاستك وبنفسك.

د - التجسس (بالجيم) هو البحث، ومنه قيل: رجل جاسوس إذا كان يبحث عن الأمور. وبالحاء: هو ما أدركه الإنسان ببعض حواسه.

٨- التجسس أكثر ما يقال في الشر، و التحسس غالباً يكون في الخير، ومنه قوله تعالى حكاية عن قول يعقوب على نبينا وعليه الصلاة والسلام:

﴿يَبْنِيْ اٰذْهَبُوْا فَتَحَسَّسُوْا مِنْ يُوسُفَ وَآخِيْهِ﴾ [يوسف: ٨٧] أي: فتعرفوا منهما وتطلبوا خبرهما.

٩- نهى الله تعالى عن البحث عن المستور من أمور الناس وتتبع عوراتهم، حتى لا يطلع على ما ستره الله منها. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله

ﷺ قال: (إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا...) (١).

١٠- عن عمرو بن دينار: كان رجل من أهل المدينة له أخت فاشتكت، فكان يعودها فماتت فدفنها. فكان هو الذي نزل في قبرها، فسقط من كفه كيس فيه دنانير، فاستعان ببعض أهله فنبشوا قبرها فأخذ الكيس، ثم قال: لأكشفن حتى أنظر ما آل حال أختي إليه، فكشف عنها فإذا القبر مشتعل ناراً، فجاء إلى أمه فقال: أخبريني ما كان عمل أختي؟ فقالت: قد ماتت أختك فما سؤالك عن عملها؟ فلم يزل بها حتى قالت له: كان من عملها أنها كانت تؤخر الصلاة عن مواقيتها، وكانت إذا نام الجيران قامت إلى بيوتهم فألقمت أذنهم أبوابهم، فتنجس عليهم وتخرج أسرارهم، فقال: بهذا هلك.

١١- المراد بالنهاي عن التجسس والتحسس، النهي عن البحث عن عورات الناس ومعاييهم، والاستكشاف عما ستروه من الزلات والعثرات، وهذا يعد من الكبائر كما عليه الجمهور.

وعن الإمام الأوزاعي أنه قال: من التجسس المنهي عنه الاستماع إلى حديث قوم وهم له كارهون. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب في أذنيه الآنك يوم القيامة» (٢).

١٢- المراد بذكرك أخاك بما يكره ذكره صريحاً، أو كناية أو كتابة، ويدخل في ذلك الرمز والإشارة، فإن علة النهي عن الغيبة هي الإيذاء بتفهم الغير نقصان المغتاب فبأي وجه كان هذا الإفهام فهو غيبة.

(١) متفق عليه (٢٧٤٨)، (٢٥٦٣).

(٢) ابن حبان، باب الاستماع المكروه وسوء الظن، (٤٩٨/١٢)، رقم (٥٦٨٥).

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»^(١).

١٣- الغيبة من الكبائر، التي تحتاج إلى توبة صادقة بشروطها المعروفة بدليل ما رواه أبو داود عن سعيد بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق»^(٢). والأحاديث المنفرة من الغيبة كثيرة.

١٤- بين رسول الله ﷺ عقوبة صاحب الغيبة في الآخرة بقوله: «من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه يوم القيامة، فيقال له: كله ميتاً كما أكلته حياً، فيأكله ويكلح ويضج»^(٣).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟! قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»^(٤).

١٥- روى أبو هريرة رضي الله عنه أن الأسلمي ماعزاً جاء إلى النبي ﷺ فشهد على نفسه بالزنى فرجحه رسول الله ﷺ، فسمع نبي الله ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر: انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب، فسكت عنهما، ثم سار ساعة حتى مر

(١) البيهقي، ما ورد من الأخبار في التشديد على من اقترض من عرض أخيه المسلم، (٢٩٩/٥)، رقم (٤٩٦٧).

(٢) أحمد، مسند سعيد بن زيد، (١٩٠/١)، رقم (١٦٥١).

(٣) الطبراني في الأوسط، (١٨٠/٢)، رقم (١٨٢).

(٤) أبو داود، باب في الغيبة، (٤٢٠/٤)، رقم (٤٨٧٨).

بجيفة حمار شائل^(١) برجله فقال: «أين فلان وفلان؟» فقالا: نحن ذا يا رسول الله، قال: «انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار» فقالا: يا نبي الله ومن يأكل من هذا؟! قال: «فما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها»^(٢).

١٦- في قوله تعالى: ﴿أَيُّجِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ وَأَنْفَقُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ بين الله تعالى قباحة حال الذي يغتاب الناس وسوء فحشه وفيها وجوه كثيرة تدفع العاقل أن يبغض الغيبة ولا يعود إليها أبداً ومنها:

أ - مثل الله تعالى الغيبة بأكل الميتة، لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه، وفيه إشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه ودمه، لأن الإنسان يتألم قلبه إذا ذكر بسوء، كما يتألم جسده إذا قطع لحمه، والعرض أشرف من اللحم، فإذا لم يحسن من العاقل أكل لحم الناس، فترك أعراضهم أولى.

ب- وقوله تعالى: ﴿لَحْمَ أَخِيهِ﴾ أكد في المنع، إذ يزداد أمر الغيبة قبحاً ووحشيةً وكراهية، أن يكون ذلك الإنسان الميت الذي ينهش من لحمه هو أخوه في الإنسانية والآدمية، بل أخوه في الملة الإسلامية والعقيدة الإيمانية، وهذا يجعل الأمر أشد سوءاً لأن العدو قد يحمل الغضب على أكل لحم عدوه.

(١) الشَّوْل: الإبل إذا شولت فلزقت بطنوها بظهورها. وشالت الناقة بذنبها: رفعته، وكل شيء مرتفع فهو شائل. وشال الميزان: ارتفعت إحدى كفتيه.

(٢) أبو داود، باب رجم معاذ بن مالك، (٥٥٣/٢)، رقم (٤٤٢٨).

ج- قوله تعالى: ﴿مَيْتًا﴾ أبلغ في الزجر والردع.

د- يزيد أمر الغيبة قبحاً وذماً وفحشاً أن يكون ذلك الميت إنساناً لا حيواناً
فهذا قبح على قبح.

هـ- ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: فكرهتم أكل الميتة، فكذلك فاكرهوا الغيبة.

الثاني: فكرهتم أن يغتابكم الناس، فاكرهوا غيبة الناس.

وقيل: لفظه خبر، ومعناه أمر، أي: اكرهوه.

إذاً إن هذا الذي يغتاب غيره قد هوى إلى الحضيض الأسفل في البهيمية
والحيوانية الشرسة والوحشية على وجه ما يبلغه الحيوان ولا البهائم.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من ذكر امرءاً بشيء ليس فيه
ليعيبه به حبسه الله في نار جهنم حتى يأتي بنفاد ما قال فيه»^(١).

١٧- كل من سمع كلاماً مؤذياً في حق غيره فهو شريك القائل في الإثم ما لم
ينكر ذلك عليه، ويرد عن أخيه المسلم، وإن عجز فارق المجلس.

عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من ذب
عن لحم أخيه -أي دافع- بالغيبة كان حقاً على الله أن يعتقه من النار»^(٢).

وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:
«من حمى مؤمناً من منافق بعث الله ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار
جهنم، ومن رمى مسلماً يريد به شينه حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى

(١) الطبراني في الأوسط، (٣٧٩/٨)، وهو ضعيف.

(٢) أحمد، من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها، (٤٦١/٦)، رقم (٢٧٦٥٠).

يخرج مما قال»^(١). قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَهْلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

١٨- قوله تعالى: ﴿أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]. هذا استفهام إنكاري جاء لبيان أن الأمر منكر جداً، وأن أحداً من العقلاء لا يحب أكل لحم أخيه ميتاً، ولا يميل إلى ذلك أدنى ميل، كما أن من اغتاب غيره فإنه كأكل لحمه، لأن اللحم ساتر للعظام، والشاتم الذي يغتاب غيره كأنه يقشر ويكشف ما عليه من ستار أسبله الله تعالى عليه، فهو مثيل لآكل اللحم الذي كسا الله تعالى به العظام.

١٩- الفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فاء وقعت في جواب الشرط المقدر ويقدر معه قد، والمعنى: إن تيسر لكم ذلك، أو عرض على أحدكم ذلك فقد كرهتموه، فإنه لا يمكنكم أن تنكروا كراهيتكم لذلك، فكيف تقعون في غيبة غيركم وأنتم تعلمون وتقرون بقبح ذلك، ونفرتكم من ذلك، وكراهيتكم الشديدة لذلك؟! ٢٠- لا خلاف أن الغيبة من الكبائر، وأن من اغتاب أحداً عليه أن يتوب إلى الله عَجَلًا.

ولكن هل يستحل المغتاب؟ اختلف فيه على عدة أقوال:

الأول: ليس عليه استحلاله، وإنما هي خطيئة بينه وبين ربه، واحتج هؤلاء بأنه لم يأخذ من ماله ولا أصاب من بدنه ما ينقصه، فليس ذلك بمظلمة يستحلها منه، وإنما المظلمة ما يكون منه البدل والعوض في المال والبدن.

(١) أحمد، حديث معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه، (٤٤١/٣)، رقم (١٥٧٣٤).

الثاني: هي مظلمة، وكفارتها الاستغفار لصاحبها الذي اغتابه، واحتجوا بحديث عن الإمام أحمد قال: رَوَيْنَا فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ: «كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتابته»^(١).

الثالث: هي مظلمة وعليه الاستحلال منها، واحتجوا بقول النبي ﷺ: «من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليتحلله منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم، يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيد على سيئاته»^(٢). وفي رواية قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون له دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»^(٣).

٢١ - اختلف العلماء في الاستحلال هل يكفي من الغيبة المجهولة أم لا بد أن يذكر له ما قاله بالتعيين؟

القول الأول: لا بد من معرفتها لأن الإنسان قد يسمح عن غيبة دون غيبة. ويندب لمن سئل عن التحليل أن يحلل أخاه مما قال، وأن يسامحه ويعفو عنه، ولكن لا يلزمه ذلك.

عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: «عفوا تعف نساءكم، وبروا آباءكم تبركم أبناءكم، ومن اعتذر إلى أخيه المسلم من شيء بلغه عنه فلم يقبل عذره لم يرد علي الحوض»^(٤).

(١) أحمد، (٢٨٩/١)، رقم (٢٦٢٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢٣/٩) رقم (٦٣٦٧)، وهو ضعيف وله شواهد.

(٢) الترمذي، باب شأن الحساب والقصاص، (٦١٢/٤)، رقم (٢٤١٩).

(٣) البخاري، باب من كانت له مظلمة عند الرجل، (٨٦٥/٢)، رقم (٢٣١٧).

(٤) الطبراني في الأوسط، (٢٤١/٦)، رقم (٦٢٩٥).

القول الثاني: وقد ذهب بعض العلماء إلى أن التحلل من الغيبة ليس بواجب على من وقع في غيره وقال: هي مظلمة، وكفارتها الاستغفار لمن اغتابه، واحتجوا بالحديث السابق: «كفارة من اغتابه أن تستغفر له»^(١). أي أن يطلب له المغفرة من الله تعالى إن تعذرت مراجعته واستحلاله، وإذا ترتب على طلب الاستحلال مفسدة كبرى، بأن يكون الذي اغتاب حاد المزاج، ضيق الخلق، شحيح النفس غير صفوح ولا سموح، فرما يزداد غيظه، ويشدد لومه، وتأخذه الحدة فيضطرب بشدة، فإذا تحقق ذلك منه فليستغفر له لعل الله تعالى يغفر لهما.

٢٢- ليس من هذا الباب غيبة الفاسق المعلن به الجاهر، فإن في الخبر: «من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له». وقال عليه السلام: «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس»^(٢).

من آثار الغيبة على المختاب:

١- الذي يغتاب الناس ولم يتب يعذب في قبره:

عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: بينا أنا أماشي رسول الله ﷺ وهو آخذ بيدي ورجل على يساره، فإذا نحن بقبرين أماننا، فقال رسول الله ﷺ: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، بلى كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة»^(٣). وفي رواية: «إن هذا كان يأكل لحوم الناس»^(٤).

(١) البيهقي في الشعب (١٢٣/٩)، رقم (٦٣٦٧). وقال إسناده ضعيف.

(٢) الطبراني (٤١٨/١٩)، رقم (١٠١٠)، وهو ضعيف.

(٣) متفق عليه، (٢١٨)، (١٦٥).

(٤) الطبراني في الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، (٤١/٣)، رقم (٢٤٦٣).

٢- الغيبة أشد من الربا:

قال ﷺ «إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق»^(١).

٣- الغيبة إذا كثرت وعظمت ولم يتب منها تأتي على الحسنات:

وربما لم تبق فيها شيئاً لصاحبها، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه في عرضه أو شيء منه فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون درهم ولا دينار، وإن كان له حسنات أخذ منها بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئاتهم فطرح عليه ثم طرح في النار»^(٢).

٤- استئصال روح الأخوة والمحبة والألفة والتعاون من المجتمع:

ليحل محلها روح الكراهية والبغضاء والفتنة والتناحر، فتتركة مجتمعاً ضعيفاً مفككاً مطمعاً لأعدائه.

بعض أسباب ودوافع الغيبة والنميمة:

(١) الحسد.

(٢) الحقد.

(٣) الغيظ.

(٤) الغضب.

(٥) الإستعلاء على الغير، بتنقيصهم وبذكر عيوبهم.

(٧) مجاملة الجلساء ومجاراتهم وإرضائهم.

(١) أبو داود، باب في الغيبة، (٦٨٥/٢) رقم (٤٨٧٦).

(٢) مسلم، باب تحريم الظلم، (١٩٩٧/٤)، رقم (٢٥٨١).

(٨) الصحبة السيئة.

(٩) السخرية والإستهزاء بالغير.

(١٠) كثرة الفراغ.

ما يباح من الخيبة:

يباح من الغيبة عدة أنواع تجمعها ضرورة البيان عن الشخص الذي نغتابه، ومن هذه الوجوه:

الأول: التظلم، فيحوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه فيقول: ظلمني فلان بكذا وكذا، والمعنى أنه يشكو ظلم الظالم لمن يستطيع رد ظلمه.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا وكذا فازجره عن ذلك ونحو هذا، ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر.

الثالث: الاستفتاء، فيقول للمفتي: ظلمني أبي أو أخي أو زوجي أو فلان بكذا فهل له في ذلك؟ وما طريقي في الخلاص منه وتحصيل حقي؟ ولكن الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول في رجل أو شخص أو زوج كان من أمره كذا وكذا؟

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قالت هند امرأة أبي سفيان للنبي ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، قال ﷺ: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»^(١).

(١) البخاري، باب القضاء على الغائب، (٨٧/٧)، رقم (٥٣٦٤).

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه:

- ١- جرح المجروحين من الرواة والشهود.
 - ٢- المشاورة في مصاهرة إنسان، أو مشاركته، أو إيداعه، أو معاملته أو غير ذلك، أو مجاورته، ويجب على المشاور أن لا يخفي حاله، بل يذكر المساوئ التي فيه بنية النصيحة.
 - ٣- إذا رأى متفكهاً يتردد إلى مبتدع ضال أو فاسق يأخذ عنه العلم وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك فعليه نصيحتة ببيان حاله، بشرط أن يقصد النصيحة، وألا يكون الباعث هو الحسد.
 - ٤- أن يكون له وظيفة لا يقوم بها على وجهها إما بأن لا يكون صالحاً لها، وإما بأن يكون ظالماً متشدداً، أو مغفلاً ونحو ذلك، فيجب ذكر ذلك لمن له الولاية العامة ليزيله ويولي من يصلح.
- الخامس:** أن يكون إنسان مجاهرًا بالفسق والفجور والظلم والتعدي على حرمان الناس وحقوقهم. فيجوز ذكره بما يجاهر به. وهذا معنى قول النبي ﷺ: «أترعون عن ذكر الفاجر أن تذكروه؟ اذكروه يعرفه الناس»^(١). وقوله ﷺ: «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس»^(٢). وكقوله ﷺ: «لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «ائذنوا له بنس أخو العشيرة هو»^(٣). وكقوله ﷺ: فاطمة بنت قيس رضي الله عنها وقد خطبها معاوية وأبو الجهم:

(١) مالك، باب الغيبة والبهتان، (٤٦٢/٣)، رقم (١٢).

(٢) البيهقي، الستر على أصحاب القروف، (١٠٩/٧)، رقم (٩٦٦٦). [أصحاب القروف: الذين يقتربون الذنوب].

(٣) البخاري في الأدب المفرد، باب شر الناس من يتقى شره، (٣٥/٢)، رقم (٥٥٧).

«أما معاوية فصعلوك، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه»^(١).

ولكن يجب أن تكون الحكمة رائد العقل، حتى يعرف كيف يذكر هذا الفاجر ويتوصل إلى درء خطره ومنع أذاه، وإلا كان السكوت أسلم، وانتظار الفرص أفضل وأحكم.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفاً بلقب كالأعمش والأعرج والأصم والأعمى والأحول وغيرهم جاز تعريفهم بذلك، ويحرم إطلاقه على جهة التنقيص، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى. ورحم الله من قال:

القدح ليس بغيبة في ستة	متظلم ومعرف ومحذر
ولمظهر فسقاً ومستفت ومن	طلب الإعانة في إزالة منكر



(١) مسلم، باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها، (١١١٤/٢)، رقم (١٤٨٠).

المبحث الحادي عشر

الكرم التقوى

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ

أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣)

المطلب الأول - الشرم:

لما بين سبحانه وتعالى فيما سبق أن المؤمنين إخوة، وأمر بأداء حقوقها، ونهى عما فيه انتهاك لحرمتها، ونهى عن السخرية والنبز واللمز وسوء الظن والتجسس والغيبة، لما في ذلك من انتقاص المؤمن أخيه المؤمن وإيذائه واحتقاره والترفع عليه وادعاء الأفضلية.

ذكر بعد ذلك هذه الآية الكريمة، يبين فيها تأكيد الأخوة الإيمانية التي هي الأصل، وتقويتها بالأخوة الإنسانية، وأنهم كلهم إخوة خلقوا من أب واحد، وأم واحدة، فهم سواسية، ليس لأحد منهم فضل على غيره، ولا أكرمية على غيره، ولا رفعة درجة إلا بتقوى الله عز وجل، فأكرمهم عند الله أتقاهم، ويبين أن التقوى ليست دعوى، وكون الإنسان أتقى من غيره ليست مستندة إلى دعواه، بل مرد ذلك إلى الله تعالى فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي هو عليم بمن اتقى، كما قال سبحانه:

﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

كما أنه تعالى عليم خبير بمن هو أتقى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. لقد جعلهم الله تعالى شعوباً وقبائل ليتعارفوا بينهم، فيواصلوا أرحامهم، ويتآلفوا بينهم، ويتبينوا أنسابهم، ويتوارثوا أموالهم بحقها الشرعي.

ولم يجعلهم سبحانه شعوباً وقبائل ليتفاخروا بينهم بالآباء والقبائل،
ويترفع بعضهم على بعض، فيحتقر نسب غيره.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به
أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثرة في المال، منسأة في الأثر»^(١).

لقد أنزل الله تعالى هذه الآية ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾
يبين للناس أنه تعالى خلقهم من أصل واحد (آدم وحواء)، ويزجرهم فيها عن
التفاخر بالأنساب، والتكاثر بالأموال، والازدراء بالفقراء، فإن المدار على
التقوى. أي الجميع من آدم وحواء، إنما الفضل بالتقوى.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾: ليعرف بعضكم بعضاً، لا للتفاخر
بالآباء والقبائل والأنساب، والشعوب رؤوس القبائل، مثل ربيعة ومضر
والأوس والخزرج، واحدها شَعْبٌ بفتح الشين، سموا به لتشعبهم واجتماعهم
كشعب أغصان الشجرة.

والشَّعب في تعريفه الحديث: مجموعة من الأفراد أو الأقسام يعيشون في
إطار واحد من الثقافة والعادات، ضمن مجتمع واحد وعلى أرض واحدة،
ومن الأمور المميزة لكل شعب طريقة تعاملهم وشكل العلاقات الاجتماعية
التي تتكون في مجتمعات هذا الشعب^(٢).

والشعب من الأضداد، يقال: شعبته إذا جمعته، وشعبته إذا فرقته^(٣).

(١) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، (٧٨/٤)، رقم (٧٢٨٤).

(٢) الموسوعة الحرة (ويكيبيديا).

(٣) والشُّعوبية: بالضم فرقة تفضل العجم على العرب، وهي نزعة ظهرت في العصر
العباسي تنكر تفضيل العرب على غيرهم وتحاول الحط منهم والواحد يسمى شعوبي.

واستحدث اسم الأسرة والعائلة لما يشمل الزوج والزوجة، وأولادهما الذين يعيشون في دار واحدة.

والشعب بكسر الشين الطريق في الجبل، أو ما انفرج بين الجبلين، والناحية أيضاً، وجمعه: شعاب.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾: في هذه الآية ما يدل على أن التقوى هي المراعى عند الله ﷻ وعند رسوله ﷺ دون الحسب والنسب. فإن التقوى تكمل بها النفوس، وتتفاضل بها الأشخاص، وترتفع بها الدرجات في أعلى الجنات، فمن أراد شرفاً وعزاً وكرامةً فليلتمس ذلك منها، وعن سمرة عن النبي ﷺ قال: «الحسب المال والكرم التقوى»^(١).

والتقوى: مراعاة حدود الله تعالى أمراً ونهياً، والاتصاف بما أمرك أن تتصف به، والتنزه عما نهاك عنه.

وهي العمل بالتنزيل، والخوف من الجليل، والاستعداد ليوم الرحيل. قال ميمون بن مهران: لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبته شريكه.

وقال الحسن: ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام.

ويظن كثير من الناس أن تقوى الله تعالى بكثرة الصلاة والصيام وأداء فريضة الحج، ثم هم لا يأترون بمعروف، ولا ينتهون عن منكر، يؤذون الناس، ويعتدون على حرماهم، ثم هم لا يتورعون عن أكل أموال الناس بالباطل، وهذا ظن خاطئ وزعم فاسد.

(١) سنن الترمذي في سورة الحجرات، (٣٩١/٥)، رقم (٣٢٧١)، قال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: ليس تقوى الله بصيام النهار، ولا بقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله، فمن رزق بعد ذلك خيراً فهو خير إلى خير.

وعن عطية بن عروة السعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس»^(١).

المطلب الثاني - الإعراب:

﴿خَلَقْتَكُمْ﴾ الجملة في محل رفع خبر: (إن).

﴿إِنَّا خَلَقْتَكُمْ﴾ الجملة الاسمية ابتدائية لا محل لها.

﴿لِتَعَارَفُوا﴾: مضارع منصوب بـ: أن المضمرة بعد لام التعليل وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، وأن المضمرة، والمضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بالفعل: (جعلناكم).

﴿عِنْدَ﴾: ظرف مكان متعلق بـ: (أكرم).

﴿أَنْفَكُمْ﴾: خبر إن مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَكُمْ﴾ الجملة الاسمية تعليلية لا محل لها.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها.

المطلب الثالث - الفوائد:

١- عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب بمكة فقال: «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعاضمها بآبائها، فالناس رجالان: رجل بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله. والناس بنو آدم

(١) ابن ماجه، باب الورع والتقوى، (١٤٠٩/٢) رقم (٤٢١٥).

وخلق الله آدم من تراب قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١).

٢- خطب رسول الله ﷺ بمنى في وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال: «أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: ليلغ الشاهد الغائب»^(٢).

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة إني جعلت نسباً وجعلتكم نسباً فجعلت أكرمكم أتقاكم، وأبيتم إلا أن تقولوا: فلان ابن فلان وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم أين المتقون؟ أين المتقون؟»^(٣).

٤- بين الله تعالى في هذه الآية أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى، وكذلك في أول سورة «النساء»: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتَقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

ولو شاء لخلقه دونهما كخلقه لآدم عليه السلام، أو دون ذكر كخلقه لعيسى عليه السلام، أو دون أنثى كخلقه تعالى حواء، وهذا الجائز في القدرة لم يرد به الوجود.

(١) البيهقي، مما يجب حفظ اللسان منه الفخر بالآباء، (٤/٢٨٥)، رقم (٥١٢٦).

وقال: غريب. و(عيبة): أي الكبر والفخر.

(٢) البيهقي، باب تحريم القتل من السنة، (٨/١٩)، رقم (٥١٧٣).

(٣) الحاكم، باب تفسير سورة الحجرات، (٢/٢٦٣)، رقم (٣٧٢٥).

٥- جاء التحذير الشديد لمن عظم غنياً لماله لا لتقواه وإيمانه، عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «من دخل على غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه»^(١).

وإنما يكرم الغني إذا كان على تقوى الله تعالى، قائماً بما أوجبه الله تعالى، مؤدياً حق ماله، مواصلاً به رحمه، مؤدياً زكاته لأهلها المستحقين، مساعداً ومسعفاً للفقراء وذوي الأرحام وذوي الحاجات، كما قال ﷺ: «إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يتقي في ماله ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم أن لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل.

وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالاً لعملت عمل فلان (أي: عمل خير وبر) فهو بنيته وأجرهما سواء.

وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً^(٢)، فهو يخبط في ماله بغير علم، ولا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم أن لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل. وعبد لم يرزقه مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان^(٣) فهو بنيته ووزرهما سواء»^(٤).

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يقول العبد: مالي مالي وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى أو ما لبس فأبلى أو أعطى فاقتنى وما سوى ذلك فهو ذاهبٌ وتاركه للناس»^(٥).

(١) الخطيب (٤/٣٦٨). (فتضعضع): فخضع وذل.

(٢) علماً بالحلال والحرام، وبما يجب عليه من أمور دينه وعمله.

(٣) أي لعمل مثل ذلك الفاسق الذي يخبط في ماله، ولا يتقي فيه ربه، ولا يصل رحمه، فنوى بنية جازمة أن لو كان عنده مال لعمل ذاك العمل الحرام.

(٤) الترمذي، باب ما جاء أن الدنيا سجن المؤمن، (٤/٥٦٢)، رقم (٢٣٢٥).

(٥) مسلم، كتاب الزهد والرقائق، (٤/٢٢٧٣)، رقم (٢٩٥٩).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رأيته قال: «هم الأخسرون ورب الكعبة» قال: فجئت حتى جلست، فلم أبق أن أقمت، فقلت: يا رسول الله فذاك أبي وأمي من هم؟ قال: «هم الأكثرون أموالاً، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا^(١)، من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله وقليل ما هم»^(٢).

التقوى

التقوى لغة: هي توقي الإنسان ما يضره.

والتقوى شرعاً: هي توقي غضب الله تعالى وعقابه وعذابه وعتابه، وهي القيام بأوامره واجتناب نواهيه.

أنواع التقوى:

التقوى نوعان:

١- تقوى القلوب وهي من قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، وتعظيم شعائر الله تعالى هو من تقوى القلوب وليس هو كل التقوى. وشعائر الله تعالى تشمل جميع معالم دين الله تعالى وأحكام شريعته ومواقيتها ومواضع عباداته، وهي شاملة لجميع مناسك الحج، ومواقع المناسك والبيت الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى والمساجد كلها. وتشمل تعظيم المصحف الشريف، وكتب السنة المطهرة، وكتب السيرة النبوية، وكتب العلوم الشرعية والعقائد الدينية

(١) إلا من أعطى بسخاء وبذل للمساكين والمحتاجين والفقراء.

(٢) مسلم، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي زكاته، (٢/٦٨٦)، رقم (٩٩٠).

كلها. وتشمل تعظيم حملة الكتاب والسنة وعلوم الدين والشريعة، لأنهم حملة هذا الدين ودعاته. قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشبهة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»^(١).

وإن من أعظم تقوى القلوب محبة الله تعالى وتعظيمه ومحبة رسوله ﷺ، ومحبة ما يحبه الله تعالى ورسوله ﷺ، وكراهية ما يكرهه الله تعالى ورسوله ﷺ.

قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»^(٢). وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»^(٣).

٢- تقوى القوالب والجوارح: وتسمى التقوى العملية، وهي تقوى المحرمات التي يتعاطاها المرء مما نهى الله عنه، كشرب الخمر والسرقة وما وراء ذلك من المحرمات الكبائر والصغائر. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

(١) البخاري في الأدب المفرد، باب إجلال الكبير، (١٤٨/١)، رقم (٣٥٧).

(٢) البخاري، باب حلاوة الإيمان، (١٢/١) رقم (١٦).

(٣) متفق عليه، (١٥)، (٤٩).

«اتق المحارم تكن أعبد الناس»^(١).

مراتب التقوى:

١- تقوى الكفر والشرك وذلك باجتناب ما يوجب الكفر والابتعاد عن

الشرك الأكبر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ

ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال في هذه الآية: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ

إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]: قال الله تبارك وتعالى:

«أنا أهل أن أتقى، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً، فأنا أهل أن أغفر له»^(٢).

٢- تقوى المحرمات، يقول الحسن البصري رضي الله عنه: (المتقون هم الذين اتقوا ما

حرم الله تعالى عليهم، وأدوا ما افترض الله عليهم).

٣- اتقاء الشبهات، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس،

فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع

في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل

ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت

صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»^(٣).

(١) الترمذي، باب الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، (٥٥١/٤)،

رقم (٢٣٠٥).

(٢) ابن ماجه، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، (١٤٣٧/٢)، رقم (٤٢٩٩).

(٣) البخاري، باب فضل من استبرأ لدينه، (٢٨/١)، رقم (٥٢).

٤- اتقاء ما لا بأس به من المباحات مخافة الوقوع مما به بأس.

عن عطية السعدي رحمه الله، قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين». - وفي رواية -: «لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به، حذراً مما به بأس»^(١).

٥ - تقوى الله حق تقاته، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

ولما كانت التقوى هي الأمر المعول عليه، وبها يكون مقادير الناس وكرامتهم عند الله تعالى، فقد جاءت وصية الله تعالى للأولين والآخرين بالتقوى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

وكان ﷺ يوصي بتقوى الله تعالى في وصاياه العامة والخاصة.

فمن وصاياه العامة ما جاء في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قالوا: يا رسول الله أوصنا. قال ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله عز وجل، والسمع والطاعة»^(٢). ومن وصاياه الخاصة وصيته لأبي ذر رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أوصني، قال ﷺ: «أوصيك بتقوى الله تعالى، فإنه رأس الأمر كله»^(٣).

(١) البخاري في الإيمان، باب دعاؤكم لإيمانكم، (١/١)، رقم (٧).

(٢) المستدرک على الصحيحين، کتاب العلم، (١/١٧٤)، رقم (٣٢٩).

(٣) الطبراني في الكبير، باب جندب بن جنادة أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، (٢/١٥٧)، رقم ١٦٥١.

فضائل التقوى:

١- التقوى سبب الولاية:

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ ذَلِكُ ۖ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

٢- التقوى الكاملة سبب في نيل الرعاية والعناية الإلهية:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

٣- التقوى يفتح الله تعالى بها أبواب بركات السماء والأرض:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

٤- تقوى الله تعالى سبب عظيم في فتح الأبواب المغلقة، وفتح أبواب الرزق الحلال النافع في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِّنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ ۖ فَدَّ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِّنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ۖ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ [الطلاق: ٤-٥].

٥- التقوى سبب للعواقب الحميدة والتخلص من الشدائد والحن:

وفي قصة يوسف عليه السلام خير مثال على ذلك، فقد وقع في المضايق المتنوعة، والمكآره المتعددة: فراق الأبوين، وتهديده بالقتل، وإلقاءه في البئر،

وبيعه فصار مملوكاً، ثم صار رقيقاً يخدم في بيت الملك، ثم محنته مع النساء، ثم إدخاله السجن مع أناس غير صالحين، منهم عبدة أصنام ومنهم شراب خمر... ولكن الله تعالى قال: ﴿وَالْعَقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢] فقد خلصه الله تعالى من كل محنة، ورفع به بعد كل مظلمة حتى كان كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهُ﴾ ٥٥ ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُفِصِلُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ٥٦ ﴿وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ٥٧ ﴿[يوسف: ٥٥-٥٧].

٦- التقوى فيها النجاة في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦١].

٧- التقوى فيها السلامة من المخاوف والمتالف حين يجوز الناس على الصراط:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ ٧١ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

٨- التقوى فيها الأمان يوم الخوف والزحام:

قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ٩٠ ﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ ٩١ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ مَأْكُتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ٩٢ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصِرُونَ﴾ ٩٣ ﴿[الشعراء: ٩٠-٩٣].

٩- التقوى شعار أهل الجنة:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿[مريم: ٨٥]،
وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا
وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿[الزمر: ٧٣].

١٠- التقوى هي سبيل الفوز في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿[النور: ٥٢].



المبحث الثاني عشر

الإيمان والإسلام

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤)

المطلب الأول - الشرح:

الأعراب هم سكان البادية، وهم بادية العرب، وإن الله تعالى جرت عاداته أن يرسل رسله من البلاد المتحضرة، والمدن العامرة، التي تسمى في القرآن بالقرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنِيبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿يوسف: ١٠٩﴾.

﴿الْأَعْرَابُ﴾ جمع أعرابي، وهو من يسكن البادية.

وأعرابي نسبة إلى الأعراب. والعرب أهل الأمصار، والنسبة إليهم عربي، فالأعرابي مفرد الأعراب، والعربي مفرد العرب.

وقد وصف الله تعالى الأعراب بأنهم أشد كفراً ونفاقاً فقال عز وجل: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٧].

﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ أي: لم تصدقوا بقلوبكم، ولم يدخلها الإيمان.

﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي: استسلمنا، وانقذنا مخافة القتل والأسر والسبي. وهذه صفة المنافقين لأنهم أسلموا في الظاهر ولم تؤمن قلوبهم.

والإسلام هو الدخول في السلم، وهو الانقياد والطاعة، فمن الإسلام ما هو طاعة على الحقيقة باللسان والأبدان والجنان لقوله عز وجل لإبراهيم **الْعَلَمِينَ**: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

ومنه ما هو انقياد باللسان دون القلب، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

وهل هناك فرق بين المؤمن والمسلم عند أهل السنة ؟

الإيمان لغة: مطلق التصديق، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أي: بمصدق.

والإيمان في اصطلاح علماء التوحيد: هو التصديق بكل ما جاء به رسول الله ﷺ مما علم من الدين بالضرورة، كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره وشره، وافتراس العبادات، وتحريم قتل النفس عدواناً وظلماً، وتحريم شرب الخمر، والزنى، والربا، وأكل أموال الناس بالباطل... وأمثال ذلك مما أمر الله تعالى به، أو نهى عنه.

والمقصود بالتصديق: الاعتقاد بصدقه ﷺ اعتقاداً جازماً، مع الإذعان القلبي لما جاء به، والقبول له.

أما الإسلام، فهو لغة: مطلق الامتثال والانقياد. ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

وهو شرعاً: الامتثال والانقياد لما أتى به رسول الله ﷺ من الأفعال الظاهرة الشرعية، وعلم من الدين بالضرورة، ويتحقق بالنطق بالشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

وهذا ما دل عليه حديث جبريل عليه السلام حين سأل الرسول ﷺ عن الإسلام والإيمان: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل».

وقد جمع الله عز وجل الإيمان والإسلام لأهل بيت لوط عليه السلام في سورة الذاريات بقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦].

يعني أن الله سبحانه أخرج المؤمنين لينجيهم من العذاب فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين، أي فيها بيت واحد فيه مسلمون، منهم مسلمون مؤمنون وهم الذين نجاهم الله، ومنهم مسلمون ظاهراً غير مؤمنين قلباً، بل منافقون كامرأة لوط، فلم تشملها النجاة.

﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: ظاهراً وباطناً وسراً وعلانية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تخلصوا له الإيمان.

﴿لَا يَلْتَكُمُ﴾ لا ينقصكم، يقال: لاته، يلته ليتاً، ويلوته: نقصه.

المطلب الثاني - الإعراب:

﴿ءَامَنَّا﴾: الجملة الفعلية في محل نصب مقول القول.

﴿لَمْ﴾: حرف نفي وقلب وجزم.

﴿تُؤْمِنُوا﴾: مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف النون.

والجملة الفعلية (لم تؤمنوا) في محل نصب مقول القول.

(لكن): حرف استدراك مهمل لا عمل له.

﴿قُولُوا﴾: أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله.

﴿أَسْلَمْنَا﴾: الجملة الفعلية في محل نصب مقول القول.

﴿وَلَمَّا﴾: الواو: واو الحال. (لَمَّا) حرف نفي وقلب وجزم.

﴿يَدْخُلُ﴾: الجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة.

﴿وَإِنْ﴾: الواو: حرف استئناف. (إِنْ): حرف شرط جازم.

﴿تُطِيعُوا﴾: الجملة الفعلية ابتدائية أو جملة شرط غير ظرفي لا محل لأنها.

﴿يَلْتَكُمُ﴾: مضارع جواب الشرط، والجملة الفعلية جواب الشرط، ولم

تقترن بالفاء لا محل لها.

و(إِنْ) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: الجملة الاسمية تعليلية أو مستأنفة لا محل لها.

المطلب الثالث - الفوائد:

١ - قال تعالى: ﴿لَا يَلْتَكُمُ﴾ بالمفرد ولم يقل: لا يَلْتَاكُم (بالمثنى)، لأن طاعة

الله تعالى طاعة لرسوله ﷺ.

٢- ذهب كثير من العلماء أن هؤلاء الأعراب ليسوا بمنافقين كلياً، ولكن كان إيمانهم ضعيفاً، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤]. أي لا ينقصكم من أجور أعمالكم شيئاً، فدل على أن لهم من الإيمان ما تقبل به أعمالهم.

٣- ليس المراد جميع الأعراب بل طائفة خاصة منهم، وذلك لأن الله تعالى أثنى على كثير من الأعراب ومدحهم، وشهد لهم بالإيمان الصادق والإخلاص كما في قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِذَّ خَلُوهُمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩].

٤- الطاعة تقتضي امتثال الأوامر واجتناب النواهي، أي إن تطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، وإن تطيعوا رسول الله ﷺ فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنه رسوله، وطاعته طاعة لله تعالى أيضاً، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].



المبحث الثالث عشر

شروط تحقق الإيمان

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١٥)

المطلب الأول - الشرع:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ...﴾ أي: المؤمنون الصادقون في إيمانهم هم الذين آمنوا بالله إيماناً صحيحاً، وصدقوا رسوله ﷺ وانقادوا لأوامرهما، وأذعنوا لحكمهما إذعاناً كاملاً مقروناً بالرضا.

﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي: لم يشكوا في دينهم وكل ما يأتيهم من ربهم، بل يعتبرونه حقاً وصدقاً. و(ارتاب) من رابه: إذا أوقعه في الشك مع التهمة.

﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في طاعته.

والمجاهدة بالأموال والأنفس تشمل العبادات المالية والبدنية بأسرها، فالمجاهدة بالأموال عبارة عن العبادات المالية، كالزكاة، والكفارات على جميع أنواعها، وما ينفقه المؤمن تبرعاً وصدقات.

وقدم الأموال بالذكر لحرص الإنسان عليه، فإن المال شقيق الروح، وقد يبذل الإنسان روحه في سبيل ماله، بل قد يبذل الرجل شرفه وكرامته ومروءته في سبيل تحصيل المال.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي: في إيمانهم، لا من أسلم خوف القتل ورجاء الكسب. فلما نزلت حلف الأعراب أنهم مؤمنون في السر والعلانية

وكذبوا، فنزلت ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٦):

﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: تخبرون الله بدينكم الذي أنتم عليه، وهو قولكم: ﴿ءَامَنَّا﴾.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا تخفى عليه تعالى خافية فيهما.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: يعلم كل شيء من النفاق والإخلاص وغير ذلك، فلا يحتاج إلى أخباركم.

المطلب الثاني - الإعراب:

﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة.

﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾: مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الواو.

﴿الَّذِينَ﴾: ١ - اسم موصول مبني على الفتح في محل خبر المبتدأ.

٢ - في محل رفع صفة لـ ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾:

١ - الجملة مستأنفة إذا أعرب الموصول خبر المبتدأ.

٢ - الجملة محل رفع خبر المبتدأ إذا أعرب الموصول صفة لـ ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ﴾: الهمزة: حرف استفهام تويخي تقيعي.

والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول.

﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ﴾ الجملة مستأنفة لا محل لها.

﴿وَاللَّهُ﴾: الواو واو الحال. (الله): مبتدأ.

﴿يَعْلَمُ﴾: الجملة في محل رفع خبر.

﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به.

المطلب الثالث - الفوائد:

١- في قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ حيء بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي للتراخي للإشارة إلى أن نفي الريب عنهم ليس وقت حصول الإيمان فيهم وإنشائه فقط، بل هو مستمر بعد ذلك فيما يتناول من الأزمنة. فكأنه قيل: ثم داموا على ذلك.

٢- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَحَدَّثُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي تحققوا بالتصديق القلبي الجازم القطعي وثبتوا عليه بحيث لا يعترهم بعد ذلك شك مهما تطاولت عليهم الأزمنة.

فقد تعترهم الفتن وتلقى عليهم الشبه ومع ذلك فهم مؤمنون إيماناً قاطعاً لا يقبل الشك ولا الارتياب.

٣- وصف الله تعالى المنافقين بالارتياب والاضطراب فقال: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) [النور: ٤٨-٥٠].

ثم وصف المؤمنين الصادقين فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

وقال تعالى في بيان صفات المؤمنين الصادقين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

٤- الجهاد هو بذل الجهد بكل ما ينبغي أن تجهد النفس فيه تصديقاً لدعوى الإيمان، وذلك بقيام المرء بكل ما أمره الله تعالى به من جهاد الكفار، وبقيامه بأنواع العبادات البدنية المحضة، والمالية المحضة، والمشملة عليهما معاً.

فالبدنية المحضة كالصلاة فإنها تحتاج إلى جهد وصبر عليها في أدائها ولزوم أوقاتها، قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. وقال ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

ومن العبادات البدنية المحضة الصيام، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وأما العبادات المالية المحضة فالزكاة، وهي تحتاج إلى بذل الإنسان جهده أن يؤديها كاملة بلا نقص في كل عام، طيبة بما نفسه، غير متخرج فيها، ولا متضايق ومتناقل من أدائها، ويبدل جهده أن يضعها في مواضعها المشروعة،

فإنها حق الفقراء، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَافَةَ فُلُوهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وأما العبادات المشتملة على البدنية والمالية فكالحج، والجهاد للأعداء المحاربين.

٥- تقديم الأموال على الأنفس في الآية الكريمة ونحوها من باب الترقى من الأدنى إلى الأعلى، والترقى من بذل المال النفيس إلى ما هو أنفوس وهو النفس.

٦- الجهاد بالمال والنفس يحتاج إلى جهاد النفس والهوى والشيطان والدنيا، كما قيل:

إني ابتليت بأربع يرميني بالسهم عن قوس لها توتير
إبليس والدنيا ونفسي والهوى يا رب أنت على الخلاص قدير

فمن جاهد هذه الأربعة في الله تعالى هداه الله تعالى سبيل رضاه وقربه، كما قال الإمام الجنيد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، قال: والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة إلينا، لنهديهم سبل الخلاص.



خاتمة السورة

الإسلام نعمة من الله تعالى

﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ

لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

المطلب الأول - الشرح:

﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾: هو قولهم: أسلمنا، ولم نحاربك، يمنون بذلك على رسول الله ﷺ، فبين بذلك أن إسلامهم لم يكن خالصاً.

عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه أن أناساً من العرب قالوا ^(١): يا رسول الله، أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان. فأنزل الله تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾. والمعنى: أنهم جاؤوا إليك يعدون إسلامهم منة عليك.

﴿قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ﴾ أي: لا تعتدوا عليّ بإسلامكم.

﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي: الله المنة عليكم أن أرشدكم وأمدكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم وادعيتم.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: أنكم مؤمنون.

والمنة هي النعمة لا يطلب معطيها جزاء ممن أنعم بها عليه، مشتقة من المن وهو القطع، من العطاء الذي لا يراد عليه جزاء.

(١) الطبراني في الأوسط، (٧٨/٨)، رقم (٨٠١٦).

فإن الله تعالى هو وحده له المنة لأنه يعطي العطاء ولا يحتاج إلى جزاء، وإن أعظم المنن والعطايا الإلهية هي نعمة الإيمان، والله تعالى قد امتن على هذه الأمة خاصة بنعمتين كبيرتين عظيمتين: نعمة الإيمان، ونعمة إرسال أفضل الرسل وأكرمهم على الله ﷻ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

والمن: ذكر الصنيعة، وتعداد النعمة، والمنان من بني آدم: هو الذي يعطي العطاء، ثم يذكر به من أعطاه، ويعدّد له ما فعله من المعروف، مثل أن يقول له: أعطيتك كذا، وفعلت لك كذا، وصنعت معك كذا، وهو تعبير وتكدير تنكسر منه القلوب، لذا كان مذموماً يحق الثواب ويطلبه، بل ويغضب الله تعالى.

قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤] والمن لا يليق إلا في جانب الله تعالى لأنه المتفضل بما يملكه حقيقة، وغيره لا ملك له حقيقة، فلا يليق به المن، كيف لا وقد سمي نفسه سبحانه: المنان؟!

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: المعنى: إن الله عز وجل لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض، فكيف يخفى عليه حالكم؟! بل يعلم سركم وعلايتكم. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بصير بأعمالكم الظاهرة والخفية، وعليم بجوارحكم الظاهرة والباطنة. والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

المطلب الثاني - الإعراب:

﴿أَنَّ﴾: حرف مصدري ونصب.

﴿أَسْلَمُوا﴾: ماض مبني على الضم في محل نصب بأن، والواو فاعله، وأن والفعل في تأويل مصدر في محل نصب بنزع الخافض، التقدير: لأن، أو بأن أسلموا، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما.

﴿لَا تَمْنُوا...﴾: الجملة في محل نصب مقول القول.

﴿قُلْ لَا تَمْنُوا﴾: الجملة مستأنفة لا محل لها.

﴿بَلِ﴾: حرف عطف وإضراب. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ.

﴿يَمُنُّ﴾: الجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ.

﴿اللَّهُ يَمُنُّ﴾: الجملة الاسمية في محل نصب مقول القول معطوفة على ما قبلها.

﴿أَنْ هَدَيْتُكُمْ﴾: المصدر المؤول منصوب بنزع الخافض، والتقدير (بأن هداكم).

﴿كُنْتُمْ﴾: ماض ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء اسمه. ﴿صَدِيقِينَ﴾: خبر كان منصوب.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: الجملة الاسمية مستأنفة أو مبتدأة لا محل لها.

﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: (ما):

١- اسم موصول مبني على السكون في محل جر بالباء، والجملة الفعلية بعدها صلتها، والعائد أو الرابط محذوف التقدير: بصير بالذي، أو بشيء تعملونه.

٢- (ما) مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بالباء، والجار والمجرور متعلقان بـ: ﴿بَصِيرٌ﴾، التقدير: بصير بعملكم.

المطلب الثالث - الفوائد:

- ١- بيان حكم المنّ وأنه مذموم من الإنسان ومحمود من الرحمن عز وجل وحقيقة المن هي عد النعمة وذكرها للمنع عليه وتعدادها المرة بعد المرة.
- ٢- بيان إحاطة علم الله بسائر المخلوقات، وأنه لا يخفى عليه من أعمال العباد شيء.
- ٣- فضل الله علينا حين هداانا للإيمان وأنعم علينا بالإسلام.
- ٤- ثمار الدخول في الإسلام ورسوخ الإيمان تعود على معتنقها عاجلاً وآجلاً.
- ٥- الرد على كل غافل يمتن على الله تعالى بصالح أعماله أو علو درجات إيمانه.
- ٦- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ والمغيبات منها مغيبات لم يشهدها البصر، ولم تدركها الحواس، ومنها ما لم ينته إليه علم المخلوقات، فالله تعالى يعلم ذلك كله، وإنما خص غيب السموات والأرض باعتبار أنها محيطة بالإنسان، فالسموات من فوقه، والأرض من تحته، وهو يراها، ولكنه لا يعلم ما فيهما من مغيبات وما أودع الله تعالى فيهما، وما خبأه في غياباتهما من عوالم وأرواح، ومن ملائكة وأمور أوحاها في كل سماء، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] وهو سبحانه يعلم غيب ما في الأرض من معادن وخزائن وكنوز كثرها، وأثقال حملها إياها، وأودعها في جوفها.
- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (٢٥) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٦) [النمل: ٢٥-٢٦].
- ٧- جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ليقيم الحجة على

علمه سبحانه بما في قلوبهم، فإن يكن الإيمان الصادق قد انتهى إلى قلوبهم فإن الله يعلمه، لأنه سبحانه يعلم غيب السموات والأرض، فكيف لا يعلم ما غاب في قلب الإنسان؟ فجميع المغيبات هي معلومة ومشهودة له تعالى لا تخفى عليه. وليبين سبحانه أنه يعلم قطعاً صدق إيمان قلوبهم إن كانوا صادقين في ادعائهم ذلك، فإن الإيمان اعتقادي جازم، وهو خفي غيبي، ولكن الله تعالى يعلم ما غاب في القلوب، كما قال تعالى: ﴿لَنَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

٨- قال بعضهم: الجهر معروف، والسر ما أخفيته في قلبك، والأخفى ما خفي عنك ولكنه خبئ خبأه الله تعالى في زوايا قلبك، فهو سبحانه يعلم منك ما تعلمه وما لا تعلمه من نفسك، فهو سبحانه أعلم بك منك لأنه أقرب إليك منك. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْسُوسًا ۖ فَلَمَّا أَفْتَحْنَا بَابَ الْمَوْتِ عَلَيْهِ قُلْنَا يَا نَفْسُ خُذِي مَا تَعْلَمِينَ وَمَا تَنْسُوا ۚ قُلْنَا لَا تَعْلَمِينَ إِنَّ مَا تُنصِفِينَ خَيْرٌ مِّنْ مَا تَعْلَمِينَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].



ملاحظات عامة عن أساليب العرض في سورة الحجرات^(١)

تعددت وسائل التوجيه التربوي في هذه السورة الكريمة، ولم يكن هذا التعدد مجرد تنوع لغرض التنوع، وإنما كان توافقاً بين الغاية التربوية والطبيعة البشرية. وهذه بعض الأمثلة:

أولاً- الترغيب والترهيب:

ظهرت مجموعة من إشارات الترهيب والترغيب التي تذيّل الآيات التي ضمت الآداب والضوابط المتقدمة خلال السورة الكريمة، بحيث تعمل مجتمعة على تحقيق منظومة متزنة من الدوافع والموانع التي تدفع الفرد المسلم والمجتمع نحو السلوك المرغوب فيه، وتحجزه عن السلوك المرغوب عنه.

فقوله تعالى: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

فيه تحذير وترهيب من عواقب التقدم على الله ورسوله، وفي مقابل ذلك قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣]. ترغيباً في حال الملتزمين بالآداب بين يدي الرسول ﷺ.

وكذلك وصف تعالى الذين رفعوا أصواتهم فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤].

وقابله فتح باب التوبة والمغفرة: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٥]. وبهذا يتحقق التوازن بين الترغيب والترهيب توافقاً مع الاستعداد المزدوج في النفس البشرية لتحقيق ما فيه خيرها ودرء ما فيه شرها ومفسدتها.

ثانياً- التذكير بنعمة الله تعالى وفضله:

مما يدعو المؤمن للالتزام بالهدي الإلهي والوقوف عند توجيهاته،

(١) آداب وضوابط المجتمع الإسلامي من خلال سورة الحجرات د. وسيم فتح الله.

كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ أَلَا يَمُنَ زَيْنَةُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ
وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

ثالثاً - بياض عواقب عدم التزام هذه الآداب:

لقد جاءت الآيات في هذه السورة بجملة من التنبيهات على خطورة
العواقب المترتبة على ترك التزام منظومة الأخلاق القرآنية المعروضة، ففي سياق
الأمر بالتثبت في الأخبار جاء التحذير من عاقبة الندم المترتبة على التصرف بغير
علم وثبّت وتبين، فقال تعالى: ﴿فَنُصِصُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

وفي سياق النهي عن القبائح الاجتماعية - كالسخرية والتنازع واللمز -
جاء التحذير من وقوع الظلم بين أفراد المجتمع نتيجة الاستهزاء بالغير والافتراء
عليه ومبالغة الغير في الرد على تلك السخرية والافتراءات، فقال تعالى:
﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] وهكذا.

رابعاً - تنمية الوازع النفسي للالتزام بهذه الأخلاق:

إن أحداً لا يستطيع أن يفرض التزام مبدأ من المبادئ أو خلقاً من
الأخلاق بقوة خارجية أو سلطة قانون، أما في الإسلام فكان الحل ضمن
منظومة الأخلاق الإسلامية، وبكل بساطة في قوله تعالى في ختام هذه السورة:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨].
فاستشعار هذه الرقابة الدائمة من الله وَعَلَيْكُمْ كفيلاً بتنمية الوازع النفسي في كل
فرد بما يحقق التزامه بهذه الأخلاق والآداب، ولو كان في خلوة من الناس أو
معزل عن القانون.



الفصل الثالث
مشاهد من يوم
القيامة في سورة ق

المبحث الأول

علم الله تعالى وإحاطته بالإنسان

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ^ط﴾

وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾

المطلب الأول - الشرع:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾: آدم، وكل واحد من ذريته.

﴿وَنَعَلَهُ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ^ط﴾ أي: ما يختلج في سرّه، وقلبه، وضميره، وفي هذا زجر عن المعاصي؛ التي يستخفى بها. والوسوسة: حديث النفس، بمنزلة الكلام الخفي.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾: حبل الوريد: هو الأوداج، وهما العرقان العظيمان المحيطان بالحلقوم، وهو مثل يضرب في فرط القرب. يبين الله تعالى قدرته على بعث الأموات من القبور يوم القيامة، بأنه الذي خلق الإنسان، وأنشأه من عدم، وأنه عالم بجميع أحواله وأعماله وأموره، حتى إنه ليعلم ما يتردد في نفسه من فكر، وما تحدثه به نفسه من عمل، خيراً كان أو شراً.

ومن فضل الله وكرمه أنه تجاوز عن وسوسة القلب، وحديث النفس، فقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل، أو تعمل»^(١).

(١) مسلم في الإيمان، باب تجاوز الله حديث النفس، (١١٦/١)، رقم (١٢٧).

ثم يقول تعالى: إن الإنسان تحت سلطان الله وقهره، وإن ملائكة الرحمن المكلفين بحفظ الإنسان وإحصاء أعماله هم ملازمون له دائماً، حتى إنهم بالنسبة إليه أقرب من الوريد الذي يمتد في عنقه.

كما قال تعالى في المحتضر في سورة (الواقعة): ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ [الواقعة: ٨٥]، فإن المراد بالملائكة بلا ريب. قال العلماء: في هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم، وروح وأنس وسكون قلب لقوم آخرين.

المطلب الثاني - الفوائد:

١- عموم علم الله تبارك وتعالى بالإنسان، حتى إنه سبحانه يعلم ما توسوس به نفسه.

٢- وجوب الحذر من أن يكتم الإنسان شيئاً يكرهه الله.

٣- عرضت سورة (ق) بشكل عام في عدة آيات منها، للنوازع الثلاثة التي قد تؤثر على الإنسان وتؤدي إلى هلاكه:

أ- وسوسة النفس البشرية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ﴿١٦﴾ [ق: ١٦].

ب- وسوسة الشيطان: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ﴾ ﴿٢٣﴾ [ق: ٢٣].

ج- الغفلة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].



المبحث الثاني

رقيبٌ وعَتِيدٌ

﴿إِذْ يَنْلَقَى الْمُلْتَقَيْنِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ (١٧)

مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾

المطلب الأول - الشرح:

﴿إِذْ يَنْلَقَى الْمُلْتَقَيْنِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: إن الله تعالى عالم بجميع أحوال الإنسان. ومع ذلك فإنه وكل به ملكين عن يمينه وعن شماله ملكين بالليل، وملكين بالنهار، يرقبانه ويترصدانه، ويحصيان عليه كل قول أو عمل ويكتبانه إلزاماً للحجة. ملك عن اليمين يكتب الحسنات، وملك عن الشمال يكتب السيئات.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «كاتبُ الحسناتِ على يمينِ الرجلِ، وكاتبُ السيئاتِ على يساره، وكاتبُ الحسناتِ أمينٌ على كاتبِ السيئاتِ، فإذا عَمِلَ حَسَنَةً كَتَبَهَا صَاحِبُ الْيَمِينِ عَشْرًا، وإذا عَمِلَ سَيِّئَةً قَالَ صَاحِبُ الْيَمِينِ لَصَاحِبِ الشِّمَالِ: دَعُهُ سَبْعَ سَاعَاتٍ؛ لَعَلَّهُ يُسَبِّحُ! أَوْ يَسْتَغْفِرُ»^(١).

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ﴾، ﴿لَدَيْهِ﴾: عنده.

﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: لا يصدر عن الإنسان لفظ أو كلمة إلا ولديه ملك حاضر معه، مراقب لأعماله يشبثها في صحيفته.

﴿عَتِيدٌ﴾: حاضر وجاهز ومهيأ للكتابة. رقيب: مراقب وحافظ للأعمال.

(١) البيهقي، باب في معالجة كل ذنب بالتوبة، (٣٩٠/٥) رقم (٧٠٤٩).

والمعروف والمشهور: أنهما ملكان: الأول: رقيب، وهو كاتب الحسنتات، والثاني: عتيد وهو كاتب السيئات.

أو هما ملكان كل منهما موصوف بأنه رقيب أي: مراقب وحافظ للأعمال وعتيد أي: حاضر وجاهز ومهيأ للكتابة.

المطلب الثاني- الفوائد:

١- قال تعالى: ﴿قَعِيدٌ﴾، ولم يقل: قعيدان؛ وهما اثنان؛ لأنَّ المراد عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد.

٢- دلت السورة صريحاً على أن الله سبحانه يعيد هذا الجسد بعينه الذى أطاع وعصى، فينعمه ويعذبه كما ينعم الروح التى آمنت بعينها ويعذب التى كفرت بعينها، لا أنه سبحانه يخلق روحاً أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها.

٣- تعجب الكفار من عودهم بأعيانهم بعد أن مزقهم البلى وصاروا عظاماً ورفاتاً، فتعجبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء ولهذا قالوا:

﴿أَءَدَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَبِّاً وَعَظْمًا ءَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٦] وقالوا:

﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]. ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه لم يكن ذلك بعثاً ولا رجعاً بل يكون ابتداءً، ولم يكن لقوله تعالى:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٤] كبير معنى فإنه سبحانه جعل

هذا جواباً لسؤال مقدر، وهو أنه يميز تلك الأجزاء التى اختلطت بالأرض واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميز، فأخبر سبحانه وتعالى أنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم وعظامهم وأشعارهم، وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء فهو قادر على تحصيلها وجمعها بعد تفرقها وتأليفها خلقاً جديداً.

٤- وجوب الحذر من القول أو العمل السيء، لأن هناك ملائكة يكتبون على الإنسان. عن عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه قال: (إن من كان قبلكم يكره فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تبارك وتعالى أن تقرأه، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها أتذكرون قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كُنِينٍ ۝١١﴾ [الانفطار: ١٠-١١].

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾.

أما يستحي أحدكم أن لو نشرت عليه صحيفته التي أملاها صدر نهاره، أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه.



المبحث الثالث

سكرات الموت

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (١٩)

المطلب الأول - الشرح:

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ أي: غمرته، وشدته؛ التي تغشى الإنسان، وتغلب على عقله. ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بحقيقة الموت.

وقيل: بالحق من أمر الآخرة حتى يتبينه الإنسان ويراه بالعيان.

وقيل: بما يؤول إليه أمر الإنسان من السعادة، والشقاوة.

﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: يقال لمن جاءته سكرات الموت: ذلك الذي كنت عنه تميل وتهرب.

يقال: حاد عن الشيء يحيد: مال عنه، وعدل.

والمخاطب بذلك الإنسان بشكل عام أي كل الناس.

وقيل: هو الكافر.

والإنسان بشكل عام يعاني من سكرات الموت، سواء كان مؤمناً أم كافراً، وليس في ذلك دلالة على قربته من ربه أو بعده.

روي أنه لما حضرت الوفاة سيد الخلق، وحبيب رب العالمين ﷺ، كان عنده

قدح ماء، فجعل يدخل يده فيه، ويمسح وجهه، ويقول: «لا إله إلا الله، إن

للموت لسكرات! اللهم هون علي سكرات الموت!»^(١)، وفاطمة رضي الله عنها

تقول: (واكرباه لكربك يا أبتاه)، فيقول ﷺ: «لا كرب على أبيك بعد اليوم»^(٢).

(١) الطبراني في الكبير، باب ذكر أزواج النبي ﷺ، (٣١/٢٣)، رقم (٧٨).

(٢) ابن حبان (٥٩٢/١٤)، رقم (٦٦٢٢).

المطلب الثاني - الفوائد:

١- كل أحد يوم القيامة يكون مستبصراً حتى الكفار، يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك. قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

٢- يجب الحذر من القول أو العمل السيء، لأن هناك ملائكة يكتبون على الإنسان.

٣- يجب حفظ اللسان من الكلام المحرم، فإن كل كلمة ينطق بها الإنسان تكتب عليه.

قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(١).
وقال ﷺ: (من صمت نجاً)^(٢).

وقال ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(٣).

وقال ﷺ: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»^(٤).



(١) البخاري، باب حفظ اللسان، (٢٣٧٦/٥)، رقم (٦١١٠).

(٢) البيهقي، فصل في فضل السكوت عن كل مالا يعنيه، (٥١/٧)، رقم (٤٦٢٩).

(٣) البخاري في الأدب المفرد، باب يتخطى إلى صاحب المجلس، (٣٩١/١)، رقم (١١٤٤).

(٤) البخاري، باب حفظ اللسان، (٢٣٧٦/٥)، رقم (٦١٠٩).

المبحث الرابع

سائق وشهيد

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١)

لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

المطلب الأول - الشرع:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾: ونفخ في الصور نفخة واحدة، فذلك هو يوم القيامة قد جاءك بأهواله، وهو اليوم الذي أوعد الله الكافرين بأنه سيجزيهم فيه على كفرهم بالعذاب الأليم.

قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وصاحبُ القرن قد التقم القرن، وَحَنَى جِبْهَتُهُ، وانتظر أن يُؤْذَنَ لَهُ؟!» قالوا: يا رسول الله! كيف نقول؟ قال: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ!» فقال القومُ: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ!»^(١).

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: ملك يسوقه إلى الحشر، وملك يشهد عليه بأعماله. عن يحيى بن رافع؛ قال: سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه يخطب، فقرأ هذه الآية، فقال: (سائق يسوقها إلى الله تعالى، وشاهد يشهد عليها بما عملت).

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: (السائق: الملك، والشهيد: العمل).

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

(١) ابن حبان، باب الأذكار، (١٠٥/٣)، رقم (٨٢٣).

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾:

الغطاء: الحجاب، وهو حجاب الغفلة عن الآخرة.

يقال للإنسان في ذلك اليوم: إنك كنت في غفلة عن هذا اليوم وما فيه من أهوال وشدائد وقد انجلى لك ذلك، وظهر لك، حتى رأيته عياناً فزالت عنك هذه الغفلة. ويؤيده قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧].

﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ أي: الذي كان على قلبك وسمعك وبصرك في الدنيا، والمراد: ما كان من أثر الغفلة، فهو استعارة؛ إذ شبه الغطاء الحاجب لأمر المعاد الناتج من الغفلة، والاهتمام في المحسوسات، والإلف بها، وقصور النظر عليها، بالغطاء الذي يمنع العين من الإبصار.

﴿فَبَصَّرَكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾: قوي ثابت نافذ، فقد جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى بها جسده كله، أو غشاوة غطى بها عينيه، فهو لا يبصر، فإذا كان يوم القيامة؛ تيقظ، وزالت عنه الغفلة، وغطاؤها، فيبصر ما لم يبصره من الحق، ورجع بصره الكليل عن الإبصار لغفلته، جديداً لتيقظه.

المطلب الثاني - فوائد عامة من سورة (ق):

١ - النفخ في الصور ثابت بالكتاب والسنة:

فمن الكتاب:

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فُجِعَتْهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩].

وقوله ﷻ: ﴿وَمَا يَنْظُرُهُمْ إِلَّا صِخْرَةٌ وَاحِدَةٌ مَّا لَهُمِنْ فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥].

ومن السنة:

عن عبد الله بن عمرو قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «قرن ينفخ فيه»^(١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق أو يصعق الناس ثم يرسل الله تعالى مطراً كأنه الطل فينبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ثم يقال: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم وقفوهم إنهم مسئولون»^(٢).

والنافخ في الصور هو إسرافيل عليه السلام.

أما عدد النفخات:

فالقول الأرجح أنهما نفختان: نفخة الصعق ونفخة البعث.

ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

(١) أبو داود، باب في ذكر البعث والصور، (٣٧٨/٤)، رقم (٤٧٤٤).

(٢) مسلم، كتاب الفتن باب خروج الدجال، (٢٢٥٨/٤)، رقم (٣٩٤٠).

وقوله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ [يس: ٤٩-٥١].

فقوله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ﴾ [يس: ٤٩]. هذه النفخة الأولى.

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١] هذه هي النفخة الثانية.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما بين النفختين أربعون»، قالوا: يا أبا هريرة: أربعون يوماً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة: قال: أبيت^(١).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ جاء التعبير عن المستقبل بالماضي في الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ﴾ وذلك لتحقيق الوقوع.

٣- وتختتم الآيات في هذه السورة بذكر الناس بالقرآن الكريم لأن فيه التذكيرة لمن خاف عذاب الله وأراد أن يتقيه فينجو بفضل الله تعالى ﴿ثُمَّ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (٤٥) [ق: ٤٥].

٤- في السور التي تبدأ بالأحرف المقطعة تطبع السورة بطابع تلك الأحرف، فعلى سبيل المثال: سورة (ق) تطبع السورة بالقاف: (القرآن، قال،

(١) مسلم، باب ما بين النفختين، (٤/٢٢٧٠)، رقم (٢٩٥٥).

تنقص، فوقهم، باسقات، قبلهم، قوم، حق، خلق، أقرب، خلقنا، قعيد، وغيرها).

٥- في سورة (ق) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦]. عبر عن الأمم الذين أهلكوا بالقرن فما القرن؟

أ - القرن في أحد معانيه: مائة عام.

ب- القرن في معنى آخر: هو مجموعة من الناس يعيشون في زمن واحد. إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم وخلفت في قرن فأنت غريب

المطلب الثالث - تناسب خواتيم سورة (الحجرات) مع فواتم سورة (ق):

في أواخر الحجرات ذكر الله تعالى المؤمنين وذكر الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم ممن أسلم، فقال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

وجاءت سورة (ق) تتحدث عن الكافرين، فقال عز وجل: ﴿بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢-٣].

إذن استوفت خواتيم سورة (الحجرات) وأوائل سورة (ق) عموم الخلق بالنسبة للإيمان:

أ - المؤمن الذي آمن إيماناً حقيقياً.

ب- المسلم الذي أسلم ولم يدخل الإيمان في قلبه.

ج- الكافر الذي أظهر الكفر وأبطنه، ولم يؤمن لا إيماناً حقيقياً ولا ظاهراً.

المطلب الرابع - تناسب فواتم سورة (ق) مع خواتيمها:

١- قال تعالى في بداية السورة: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١].

وقال عز وجل في آخرها ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].
فذكر القرآن الكريم في البداية والنهاية.

٢- في البداية قال: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] يعني رجوعهم إلى الدنيا بعيد، فهم لا يقتنعون أن يرجعهم الله تعالى إلى الحياة، فقال وَجَّكَ بِالرَّدِّ عَلَيْهِمْ فِي خَوَاتِيمِ السُّورَةِ: ﴿يَوْمَ تَشْقُقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤].

هم قالوا ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾، والله تعالى يقول: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ وكان الآية تكذِّبهم فيما ذهبوا إليه من مزاعم.

٣- قال تعالى في بداية السورة: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]. وقال وَجَّكَ فِي نَهَايَتِهَا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].
اللُّغُوبُ أي الكلال والفتور، وهذا ارتباط وثيق واضح.

المطلب الخامس - تناسب خواتيم سورة (ق) مع فواتم (سورة الذاريات):

١- ختمت (سورة ق) بالحديث عن يوم الحشر، فقال تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۖ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١-٤٢].

وقال تعالى في (سورة الذاريات): ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۖ وَإِنَّ الدِّينَ لَوُفُّعٌ ۖ﴾.

كأنما استكمال للموضوع نفسه في (سورة ق).

٢- ذكر تعالى في (سورة الذاريات) عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين:

﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ ۚ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ ۚ﴾ [١٣] ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ﴿الذاريات: ١٢-١٥﴾.

كذلك ذكر تعالى في (سورة ق) الصنفين:

- أ- الكفار: ﴿أَلْقِيََا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤].
تقابل المكذبين: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ﴾ [الذاريات: ١٣].
ب- المتقون: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١].
تقابل: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات: ١٥].



الفَصْلُ الرَّابِعُ
سورة النساء

المبحث الأول

مقدمة عامة عن السورة

سورة (النساء) أطول سورة مدنية بعد سورة البقرة، وهي سورة مليئة بالأحكام التي ينظم بها المؤمنون شؤونهم الداخلية والأحكام التي يحفظون بمراعاتها وتنفيذها كيافهم واستقلالهم، ويدفعون بها كيد الكائدين وإغارة المحاريين. وهي السورة الرابعة في ترتيب القرآن الكريم، والسورة الثالثة والتسعون بترتيب النزول.

والسورة تمثل الجهود التي بذلت في سبيل إنشاء المجتمع الإسلامي، وحماية ذلك المجتمع الذي انبثق وأنشئ وفق المنهج الرباني، فصورت السورة طبيعة هذا المنهج في التعامل مع الإنسان، وتفاعل الإنسان مع المنهج الرباني، حيث كان المجتمع في حالة تحول وتطهير من رواسب الجاهلية. وذلك يتطلب التعريف التام بأعداء المسلمين من المشركين وأهل الكتاب وخاصة اليهود، ثم بأعدائهم الموجودين ضمنهم مما يجعل خطرهم أكبر وهم ضعاف الإيمان والمنافقون، فبينت السورة كل هذه الأصناف وكشفت وسائلهم وحيلهم ليكون المجتمع الإسلامي حذراً منهم أشد الحذر فلا يستطيعوا بلوغ مآربهم فيه^(١).

تسمية السورة^(٢):

سميت السورة (النساء) لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بالنساء بدرجة لم توجد في غيرها من السور، ولذا أطلق عليها (سورة النساء

(١) انظر في ظلال القرآن، قطب (٤/٥٥٤) وما بعدها.

(٢) انظر التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/٢١١) والتفسير المنير، الزحيلي (٤/٢١٩).

(الكبرى) في مقابلة (سورة النساء الصغرى) التي عرفت في القرآن الكريم (بسورة الطلاق).

نزل السورة^(١):

نزلت السورة بالمدينة المنورة بعد الممتحنة وقبل الزلزلة لما ورد عن السيدة عائشة^(٢) رضي الله عنها: (ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ). ومن المعلوم أنها بدأت حياتها مع النبي ﷺ في شوال سنة الهجرة.

عدد آيات السورة (١٧٦) آية، و(٣٠٤٥) خمس وأربعون وثلاثة آلاف كلمة، و(١٦٠٣٠) وثلاثون حرفاً وستة عشر ألف حرف.

لم تنزل السورة كلها دفعة واحدة وإنما كان أول نزولها بعد الممتحنة في السنة السادسة وامتد نزولها إلى ما بعد السنة الثامنة للهجرة.

فضل السورة:

عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود^(٣) عن أبيه رضي الله عنه قال: (إن في سورة النساء خمس آيات ما يسرنى أن لي بها الدنيا وما فيها:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

(١) انظر البرهان، الزركشي (١/١٩٤) الإتيان، السيوطي (١/١١) والتحرير ابن عاشور (٤/٢١١).

(٢) عائشة بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما - زوج النبي ﷺ كانت عالمة يسألها الصحابة عن أمور دينهم، الإصابة: (٤/٣٤٨).

(٣) عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود الهذلي من كبار التابعين، ت (٩) هـ، موسوعة الحديث الشريف.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ ﴿٣١﴾ [النساء: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٨﴾ [النساء: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ ﴿٦٤﴾ [النساء: ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿١١٠﴾ [النساء: ١١٠] ^(١).

مناسبة السورة لما قبلها ^(٢):

ختمت سورة آل عمران بأمر المؤمنين بالتقوى، وافتتحت النساء بالأمر بالتقوى لجميع الناس فقال تعالى في آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٢٠٠﴾ [آل عمران: ٢٠٠].
وقال تعالى في النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١].

وتحدثت سورة النساء وآل عمران عن الجهاد في سبيل الله.



(١) الحاكم في المستدرک، تفسير سورة النساء، (١٣٧/٣)، رقم (٣١٩٤).

(٢) انظر البحر المحیط، أبو حیان (١٥٣/٣) ونظم الدرر، البقاعي (١٣/٥) وتناسق

الدرر، السيوطي (٤٤).

المبحث الثاني

موضوعات السورة وأغراضها الأساسية

المطلب الأول - وحدة الأصل الإنساني^(١):

نبه الله تعالى في بداية السورة على قدرته **وَعَلَّكَ** التي خلق بها البشر كلهم من نفس واحدة، مشيراً إلى أنهم كلهم من أصل واحد، فكلهم لآدم وادم من تراب، وأنه خلق من تلك النفس زوجها وتناسل منهما البشر ذكوراً وإناثاً، وجعل من تلك الذرية رابطة الأسرة القائمة على الرحم وصلة الدم والقربة مما يدعوهم إلى التراحم والتعاون، وكل ذلك دليل على القدرة الإلهية الباهرة التي تستوجب التقوى وتحذر من العقاب، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ [النساء: ١].

وفي التذكير بالأصل الإنساني الواحد دلالة على وجوب التزام حدود الإنسانية، وأن الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره، والأخوة تقتضي المسالمة والتعاون ونبد المحاربة والخصومة والتقاطع.

المطلب الثاني - أموال البيتامي^(٢):

للقرآن الكريم عناية خاصة باليتيم لصغره وعجزه عن القيام بمصالحه التي تحفظ له حسن الحياة في المستقبل، وتقي الأمة شر الضرر الذي يحيق بها من عدم تربيته لفقده الأب الذي يكفله ويهذهبه ويرعاه.

(١) انظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي البغدادي

(١٩/٤) ومفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي (١٣٢/٩).

(٢) انظر في ظلال القرآن، قطب (٥٦/١) وتفسير القرآن الكريم، شلتوت (١٧٧).

وقد ظهرت العناية باليتيم في سورة النساء ظهوراً واضحاً، حيث أمرت بالمحافظة على أموال اليتامى، وحذرت من دفع أموالهم إليهم إلا بعد اختبارهم، ثم تحذر تحذيراً شديداً من إهمال شأن اليتامى وأكل أموالهم وتذكر الوعيد في ذلك. قال تعالى: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْظِلِّ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَابْنُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

ثم تنتقل السورة لتخصص النساء اليتيمات بالذكر للانتباه إلى حقوقهن وعدم إهمال شؤونهن بسبب فقدن الأب، فقد جرت العادة في الجاهلية، ألا يعطوا اليتيمة مالها من الميراث إن كانوا أولياء عليها، فأمر الله في هذه السورة أن يعاملوا اليتامى بالعدل سواء كن أطفالاً ضعافاً أم نساء، وأن على المجتمع أن يعتني بشؤون اليتامى، ولا يدع أحد أفرادهم يظلم اليتيم أو يتساهل في حقوقه.

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَىٰ النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغْبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلَدِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٢٧].

المطلب الثالث - الميراث^(١):

بينت آيات (سورة النساء) الوارثين والوارثات، ونصيب كل وارث بالأوصاف التي قررها الله تعالى سبباً في استحقاق الإرث، كالنبوة والأبوة والأمومة والزوجية والأخوة، وقد سوّت السورة بين الذكر والأنثى كما سوّت بين الصغير والكبير، وجعلت لكل حقاً في الميراث، كما اعتبرت للزوجية مكانها وجعلتها سبباً من أسباب استحقاق الإرث، وبهذا أبطلت ما كان عليه العرب من جعل الإرث بالنسب مقصوراً على الرجال دون النساء والأطفال، وقد كانوا يقولون في ذلك: (لا يرث إلا من طاعن بالرماح وذاد عن الحوزة وحاز الغنيمة).

وآيات الميراث في السورة هي:

قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (٧) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾

[النساء: ٧-٨].

وقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِهِ لِلَّذِ كَرٍ مِّثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كَانَ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلَاثًا مَّا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِلْأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرَّثَهُ أَبَوَاهُ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ عَابَاؤَكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا

(١) انظر مفاتيح الغيب، الرازي (١٥٨/٩) والإسلام عقيدة وشريعة، شلتوت (٢٤٢) وما بعدها وتفسير القرآن الكريم، شلتوت (١٨٧).

﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ [النساء: ١١-١٢].

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرَأُ هَآكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء: ١٧٦].

المطلب الرابع - عقوبة الزنا في أول الإسلام:

بينت (سورة النساء) حكم الزنا في بداية التشريع الإسلامي، حيث إن حكم الزنا قد تدرج على مراحل كحكم الخمر، وذلك لأنهما كانا من العادات المتأصلة في الجاهلية، ولا يمكن اجتثاث تلك العادات فجأة وبأمر جازم، فجاء في سورة النساء الحكم الأول وهو أن المرأة إذا زنت وثبت فعلها بالأدلة الشرعية، فعقوبتها الحبس في البيت حتى تأتي ساعة منيتها، أو يجعل الله لها سبيلاً.

أما الرجل فكانت عقوبة المحسن والبكر واحدة لا فرق بينهما، وهي التوبيخ والشتيم والسب.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَدْحَشَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَقَّعُنَّ الْمَوْتَ أَوْ يُجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَازِوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ۝١٦﴾ [النساء: ١٥-١٦]، فالآية الأولى: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَدْحَشَ﴾ تدل على أن النساء إذا فعلن الفاحشة فعقوبتهن الحبس، ولفظ (الذنان) في الآية الثانية يبين أنهما البكر والمحصن من الذكور على حد سواء.

وعندما نزلت سورة النور نسخت عقوبة الحبس والأذى والتوبيخ، وصار حد الزاني البكر الجلد مئة جلدة ذكراً كان أو أنثى.

وذلك في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۝٢﴾ [النور: ٢]، أما الزاني المحصن فحده الرجم ذكراً كان أو أنثى، وذلك بفعل رسول الله ﷺ حيث رجم عدداً من الزناة وتواترت الأخبار في ذلك.

وقد وجد من يقول إن قوله تعالى ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَدْحَشَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَقَّعُنَّ الْمَوْتَ أَوْ يُجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝١٥﴾ [النساء: ١٥] هي في عقوبة السحاق أي الشذوذ المثلي بين النساء، وليست منسوخة كما يقول جمهور العلماء. وفي الرد على هؤلاء نقول:

١- إن رسول الله ﷺ قال: «خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مئة وتغريب عام والشيب بالشيب جلد مئة والرجم» فكانت عبارة «قد جعل الله لهن سبيلاً» تدل على أن هذا الحديث قد

بَيْنَ السَّبِيلِ الَّذِي جَاءَ فِي الْآيَةِ: ﴿حَتَّى يَتَوَقَّعْنَ الْمَوْتَ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥].

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور فنسخا بالجلد أو الرجم، وورد عن رسول الله ﷺ قوله: «لا حبس بعد سورة النساء»^(١).

٢- إن السحاق هو جريمة اجتماعية ولكنها لا تصل إلى خطورة جريمة الزنا فلا يمكن أن تكون عقوبتها أشد من عقوبة الزنا فيما لو كانت فاعلة هذه الجريمة بكرةً فلا يعقل أن تحبس في بيتها حتى الموت أما لو زنت فتجلد مئة جلدة ثم تخرج وتمارس حياتها بشكل طبيعي.

٣- لم يرد في قول أحد من فقهاء السلف وعلماء التفسير أن فسروا الآية على أنها عقوبة للسحاق، فهل تركوا فهمها لنا أم لم يفهموها؟؟!

المطلب الخامس - التوبة وشروطها في سورة النساء^(٢):

جاءت الآيات (في سورة النساء) عامة لكل من عمل ذنباً، ودعوة واضحة للمذنبين ليتوبوا إلى الله تعالى، وقد اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١].

وإذا تاب العبد فالله سبحانه بالخيار إن شاء قبل توبته وإن شاء لم يقبلها، وليس قبول التوبة واجباً عليه تعالى، فهو خالق الخلق ومالكهم والمكلف لهم، فلا يصح القول بوجوب شيء عليه.

(١) البيهقي، باب من قال لا حبس عن فرائض الله عز وجل، (١٦٢/٦)، رقم (١١٦٨٦).

(٢) انظر الجامع القرطبي (٩٠/٥) وما بعدها.

غير أنه سبحانه وهو الصادق في وعده، وقد أخبر بأنه يقبل التوبة عن العاصين من عباده بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٨﴾ [النساء: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ [الشورى: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ ﴿١٠٤﴾ [التوبة: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ﴾ ﴿٨٢﴾ [طه: ٨٢].

إلا أن هذه التوبة التي وعد الله تعالى بقبولها، قد وضع لها شروطاً لتكون توبة نصوحاً مقبولة عند الله تعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْأَنْثَىٰ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿١٨﴾ [النساء: ١٧-١٨].

وهذه الشروط هي:

- ١- أن يقع الذنب بجهالة أي بغلبة من نفسه الأمانة بالسوء لا بعمد وإصرار.
- ٢- الندم بالقلب وترك المعصية في الحال، أي في زمن قريب من زمن الذنب، قبل أن يداهم المرض أو يشعر بدنو الموت، حيث يكون في حالة الرجاء، ويصح منه حينئذ الندم والعزم على ترك الفعل.
- ٣- العزم على ألا يعود إلى مثل ما فعل.

٤- أن يكون ذلك حياء من الله تعالى لا من غيره.

فإذا احتل شرط من هذه الشروط، لم تقبل التوبة.

المطلب السادس - المحرمات من النساء:

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ٢٣﴾
﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ كَذَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَاحِلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٢٤﴾ [النساء: ٢٣-٢٤].

بين الله تعالى في السورة أنواع المحرمات من النساء، وهن كالتالي:

١- نكاح امرأة الأب: لأنها تشبه الأم، ولأنه فعل قبيح شنيع لا تألفه الطباع السليمة، وقد سماه العرب (النكاح المقت) ويسمى ولد الرجل من امرأة أبيه (مقيتاً).

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ٢٢﴾ [النساء: ٢٢].

٢- المحرمات من النسب وذلك يشمل:

أ- نكاح الأصول، الأمهات والجدات: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾.

ب- نكاح الفروع، البنات وبنات الأولاد من الأبناء والبناء، في قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾.

ج- نكاح القربيات كالأخوات الشقيقات أو لأب أو لأم: ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾.

د- نكاح العمات والخالات: ﴿وَعَمَّتُكُمْ وَخَالَتُكُمْ﴾.

هـ- نكاح بنات الإخوة من جهة أحد الأبوين أو كليهما: ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾.

٣- المحرمات بسبب الرضاع: إذ يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب:

﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ﴾.

فكل أقارب الأم المرضع هم أقارب للرضيع، المرضعة تصبح أمًّا للرضيع، وابنتها أخته، وزوجها أبوه، وأولادها إخوته.

عن ابن عباس^(١) رضي الله عنه لما طلب إليه أن يتزوج ابنة عمه حمزة^(٢) قال: (إنها لا تحل لي، إنها ابنة أخي من الرضاعة، ويحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب)^(٣).

ولا يحرم الرضاع إلا في سن الصغر، وهو ضمن الحولين، لقوله تعالى:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ^ط﴾ [البقرة: ٢٣٣].

(١) عبد الله بن عباس: ابن عم رسول الله ﷺ حبر الأمة وترجمان القرآن، ت (٦٥)

هـ الإصابة: (٣٢٢/٢).

(٢) حمزة بن عبد المطلب: عم رسول الله ﷺ من شجعان الصحابة، ت (٣) هـ

الإصابة: (٣٥٣/١).

(٣) الطبراني في الكبير، باب من اسمه حمزة، (٢٩١/١٠)، رقم (٢٩٢٢).

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (لا رضاعة إلا ما كان في الحولين)^(١).

٤- المحرمات بسبب المصاهرة: وهن ثلاثة أنواع تكريماً لتلك الرابطة:

النوع الأول: أم الزوجة التي دخل بها الزوج، أو عقد عليها، إذ لا يشترط الدخول بل يكفي مجرد العقد، والجدة كالأم، لقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾.

النوع الثاني: الربيبة وهي ابنة الزوجة من غيره، بشرط الدخول بأمرها فإن لم يدخل بالأم بل عقد عليها فقط فلا يحرم عليه بناتها: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ الَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾. وهذا التقييد في الآية، أي كون الربيبة في حجر زوج أمها، خرج مخرج الغالب، وليس هو قيد في التحريم، فالربيبة حرام على زوج أمها سواء كانت في حجره أو لم تكن.

النوع الثالث: زوجة الابن وابن الابن وكذا زوجة الابن من الرضاع، تحرم على الأب والجد: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ والحليلة هي الزوجة.

٥- محرمات بسبب عارض: كالجمع بين الأختين، أو بين المرأة وعمتها أو خالتها وابنة أختها وابنة خالتها. وضابط هذه الحرمة، كل امرأتين بينهما قرابة من جهة ذكر أو أنثى حرم على الزوج الجمع بينهما وتظل الحرمة قائمة لو طلق إحدهما حتى تنتهي عدتها.

(١) مالك في الرضاع، باب ما جاء في الرضاعة بعد الكبر، (٦٠٧/٥)، رقم

قال رسول الله ﷺ: «لا تنكح المرأة على عمتها ولا العممة على بنت أخيها ولا المرأة على خالتها ولا الخالة على بنت أختها ولا تنكح الكبرى على الصغرى ولا الصغرى على الكبرى»^(١).

وأشار النبي ﷺ في رواية: «إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم»^(٢).

٦- باقي المحرمات من النساء: وهن النساء المتزوجات.

المطلب السابع - النهي عن أكل أموال الناس بالباطل^(٣):

نهت الآية في (سورة النساء) عن أكل أموال الناس بالباطل،

والباطل: هو الحصول على الأموال بغير الوجه الشرعي.

كالسرقة والغصب والرشوة وأجرة البغاء والربا، وما إلى ذلك مما نهى

الإسلام عنه وله أثره السيئ في سلامة المجتمع: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا

تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩].

ولما كان معظم أسباب الاعتداء تطلع النفوس المريضة إلى ما بيد الآخرين

وحسدها عليه، نهى الله عز وجل عن ذلك وبيّن أن لكل كاسب وعامل ثمرة

عمله وكسبه، فليستغل كل إنسان مواهبه وقدرته في الكسب والعمل ولا

يتطلع إلى شيء غيره، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى

بَعْضٍ ۚ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ

فَضْلِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

(١) أبو داود في النكاح باب ما يكره أن يجمع بينهن من النساء، (١٨٣/٢)، رقم (١٧٦٨).

(٢) ابن ماجة في النكاح، باب لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، (٦٢١/١)،

رقم (١٩٣٠).

(٣) انظر التفسير المنير، زحيلي (٣١/٥) وتفسير القرآن، شلتوت (١٩٩) وما بعدها.

المطلب الثامن - تنظيم العلاقات الزوجية^(١):

١- بينت (سورة النساء) أن المرأة هي أحد العنصرين اللذين تكاثر عنهما الإنسان، وجعلت ذلك نعمة توجب على الناس تقوى الله ومراقبته، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

٢- قررت مساواة الرجال بالنساء في الخلق والحقوق والواجبات الشرعية.

٣- شرعت الكسب للنساء كما هو مشروع للرجال.

٤- أرشدت كلاً منهما إلى طلب المال الحلال عن طريق العمل والجد.

٥- بينت أنه ليس للرجل أن يسلب المرأة العمل الذي خلقت له، كما أنه ليس للمرأة أن تطمع فيما وراء مؤهلاتها الطبيعية، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [٣٣] وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَتُوهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٣٢-٣٣].

٦- قررت أن للنساء ثواب أعمالهن الصالحة، وأن مسؤوليتهن عن أعمالهن مسؤولية مستقلة، فالمرأة إنسان مكلف مسؤول، قال الله تعالى:

(١) انظر في ظلال القرآن، قطب (٢/٦٤٢) وتفسير القرآن، شلتوت (١٦٩) وما بعدها والتفسير المنير، زحيلي (٥/٤٣).

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

٧- رفع الإسلام شأن المرأة أن تكون متاعاً موروثاً، قال سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [١٩] وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: ٢٠-٢١].

٨- جعل لها حقوقاً مالية كالْمهر عند طلب الزواج بها، قال عز وجل:

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

وقد أخرج القرآن عقد الزواج هذا عن أن يكون عقد تمليك، وسمى المال الذي يدفعه الرجل للمرأة (صدقات) ووصفه بأنه نحلة.

و(النحلة): ما يمنح عن طيب النفس دون أن يكون عوضاً عن شيء، فالصلة بين الزوجين أشرف من أن يجعل عوضها دراهم معدودة، ولذلك هنيئاً الله تعالى أن يأخذ الزوج شيئاً من المهر بعد أن يدفعه إن هو أراد حل العقد بينه وبين زوجته، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [٢٠] وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢٠-٢١].

٩- شرع الإسلام نظاماً للزواج، فأمر الزوج أن يتخير زوجته من العناصر الطيبة وهنّ الحرائر المؤمنات، ومنع العدول عنهن إلى غيرهن إلا عند العجز عنهن مع خوف العنت، وذلك له قيمته في أساس الأسرة وفي إنجاب الولد وتربيته في البيئة الصالحة. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فَيَئْتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفَّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْرِبُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥].

١٠- تحدثت السورة عن أمور اتخذها أعداء دين الله ذريعة للفساد على الشريعة الإسلامية ومنها:

أ - قوامة الرجل:

بينت السورة أن الرجل قيم على المرأة، فهو كبيرها ومؤدبها إذا اعوجت وهو القائم عليها بالحماية والرعاية، فقد سوى الله تعالى بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات إلا أنه جعل للرجل درجة على المرأة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِيهِ أَرْحَامَهُنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعُولِهِنَّ أَحَقُّ بِرِدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وهذه الدرجة إنما هي درجة الإشراف والرعاية وليست درجة الاستعباد والتسخير كما يصورها المغرضون، فقد قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى

النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۖ فَالَّذِينَ حَسِبْتَ
قَتَلْتُمْ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۗ وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ ۖ فَعِظُوهُمْ ۖ
وَأَهْجُرُوهُمْ ۖ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضِرِيوهُمْ ۖ فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَ سَبِيلًا ۚ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ [النساء: ٣٤].

مما يوضح أن سبب القوامة أمران:

- ١- وجود مقومات جسدية خلقية، وهي أن الرجل قوي العقل معتدل
العاطفة قوي البنية، لذلك خص الله تعالى الرجل بالرسالة والنبوة
والإمامة والقضاء وإقامة الشعائر كالأذان والإقامة والخطبة والجمعة
والجهاد، وجعل الطلاق بيده، وخصه بالشهادات في الجنايات والحدود.
- ٢- وجوب الإنفاق على الزوجة والقريبة وإلزامه على أنه رمز تكريم للمرأة،
ولذلك خصه بزيادة النصيب في الميراث والتعصيب.

أصناف النساء أمام هذه الرياسة:

أ- صالحات: من شأهن القنوت والسكون والطاعة لله فيما يأمر به،
ومنه القيام بحقوق الزوجية والرياسة المنزلية، وهذا الصنف ليس للزوج عليه
شيء من سلطان التأديب، قال الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ حَسِبْتَ قَتَلْتُمْ حَفِظْتُ
لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

ب- غير صالحات: وهن اللاتي يحاولن الخروج على حقوق الزوجية،
﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ ۖ فَعِظُوهُمْ ۖ وَأَهْجُرُوهُمْ ۖ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضِرِيوهُمْ ۖ
فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَ سَبِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

وقد وضعت السورة لردعهن وإصلاحهن طريقتين واضحتين:

أ-الإشراف والرياسة: حيث وضعت أساليب من العلاج تتدرج من الوعظ إلى المهجر ثم الضرب، وقد جعل القرآن الكريم الضرب آخر الوسائل الإصلاحية إشارة إلى أنه لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة كدواء أخير ويجب أن يكون خفيفاً غير مبرح، كالضرب الخفيف باليد على الكتف ثلاث مرات أو بالسواك، أو بعود خفيف، لأن المقصود منه الإصلاح لا غير.

وينبغي أن لا يوالي الرجل الضرب في محل واحد، وأن يتقي الوجه فإنه مجمع المحاسن، ولا يضرهما بسوط ولا بعصاً، وأن يراعي التخفيف لأن المقصود هو الزجر والتأديب لا الإيلام والإيذاء كما يفعل بعض الجهلة، حتى ظن المغرضون أنه طغيان لا يتفق مع كرامة الزوجة، والحق أنه نوع من التأديب الخفيف الذي يحافظ على حياة الأسرة، ومع ذلك فقد كرهه النبي ﷺ وذلك في قوله ﷺ: «لا تضربوا إماء الله»، فجاء سيدنا عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: (ذئرن النساء على أزواجهن، فرخص في ضربهن)، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال ﷺ: «لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم»^(١)، وقال سيدنا عمر رضي الله عنه: (ولا تجدون أولئك خياركم)^(٢).

ب- الشقاق والتحكيم: الطريق الثاني الذي شرعه الله ﷻ لحل الخلافات وردع غير الصالحات عن نشوزهن هو التحكيم، فعندما يعجز الرجل عن

(١) أبو داود في النكاح، باب ضرب النساء، (٢/٢١١)، رقم (٢١٤٦) وذئرت المرأة:

نشزت واجترأت. انظر جامع الأصول، ابن الأثير الجزري: (٦/٥٠٦).

(٢) أبو داود في النكاح، باب ضرب النساء، (٢/٢١١)، رقم (٢١٤٦).

العلاج بالطرق السابقة، يلجأ إلى تحكيم حكّمين، أحدهما من أهله والآخر من أهلها، للسعي في إصلاح ذات بينهما بعد استطلاع حقيقة الحال بين الزوجين ومعرفة سبب الخلاف.

وقد خاطب الله تعالى بهذا العلاج جماعة المسلمين تحقيقاً لما يجب أن يكون بينهم من التكافل والتضامن على حفظ الأسرة والبيوت فقال سبحانه وتعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَنِينَتٌ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَتَّخِفُونَ نُسُوزَهُنَّ فَوَعَدُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ٣٤-٣٥].

وقال أيضاً: ﴿وَإِنْ أَمْرُهَا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء: ١٢٨].

ب- تعدد الزوجات^(١):

قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْبَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].

(١) انظر الإسلام عقيدة وشرعية، شلتوت (١٨٠) وما بعدها.

يبين الله تعالى مشروعية تعدد الزوجات ويخاطب المؤمنين بوجوب العدل بين النساء حال التعدد، ويأمرهم أن لا يجمعوا أكثر من أربع ليتمكنوا من العدل والقسم بينهما، وبين الله تعالى أحوال الرجال زمراً متنوعة، فمنهم من يتزوج اثنتين، ومنهم من يتزوج ثلاثاً، ومنهم من يتزوج أربعاً، وعدد الأربع هو الحد الأقصى الذي يمكن معه العدل بين الزوجات.

والعدل المطلوب بين النساء هو العدل المادي: أي القسم بينهما في المبيت والتسوية في نفقات المعيشة من مأكّل ومشرب وملبس ومسكن، أما العدل المعنوي أو الأمر القلبي وهو الميل والحب فغير مطلوب لأنه ليس في وسع الإنسان ولا في طاقته، لذلك كان ﷺ يميل إلى عائشة رضي الله عنها أكثر من غيرها فيقول ﷺ: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما لا أملك»^(١). أي: من ميل القلب.

وقال تعالى مبيناً هذا الأمر: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ نُصَلِّحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

يقول الإمام الغزالي^(٢) في هذا الموضوع: (ومن الطباع ما تغلب عليه الشهوة بحيث لا تحصنه المرأة الواحدة فيستحب لصاحبها الزيادة عن الواحدة

(١) أبو داود في النكاح، باب في القسم بين النساء، (٢/٢٠٨)، رقم (٢١٣٦)، والمعنى: أنه ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل، أما المحبة لعائشة رضي الله عنها فهي شيء قلبي يختص به الله تعالى ولا يملكه محمد ﷺ.

(٢) أبو حامد الغزالي: محمد بن محمد حجة الإسلام، فيلسوف متصوف، ت (٥٠٥) هـ وفيات الأعيان: (٤/٢١٦).

إلى الأربع، فإن يسر الله له مودة ورحمة واطمأن قلبه بهن، وإلا فيستحب له الاستبدال).

ثم يقول الغزالي: (ومتى كان الباعث معلوماً فينبغي أن يكون العلاج بقدر العلة، فالمراد تسكين النفس، فينظر إليه في الكثرة والقلة)^(١). ويشير الغزالي بهذا إلى أن التعدد لتحسين النفس أمر مرغوب فيه شرعاً، أي مع أخذ النفس بالعدل الواجب بين الزوجات، ويشير أيضاً إلى أن الذين يعددون زوجاتهم لمجرد الانتقال من ذوق إلى ذوق دون حاجة إليه في تحسين النفس وعفتها عن الحرام يعملون عملاً تأباه الشريعة ويمقتة أدب الدين.

المطلب التاسع - طاعة الرسول ﷺ وعقوبة معاداته^(٢):

بين الله تعالى في سورة النساء، أن طاعة رسوله الكريم ﷺ مفروضة بأمر الله تعالى، وعلى المؤمنين به أن يتبعوا رسوله الكريم ﷺ لأنه مؤد عن الله، فطاعته من طاعة الله تعالى، ومعصيته معصية الله وذلك في قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

وقد أقسم الله تعالى بربوبيته لرسوله ﷺ، أنه لا يؤمن إيماناً حقاً، إلا من توفرت فيه هذه الصفات الثلاث:

١- أن يحكموا الرسول ﷺ في قضايا المنازعات التي يختلفون فيها، فلا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً.

(١) انظر إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي (٣٠/٢).

(٢) انظر الجامع، القرطبي (٢٦٥/٥) وفي ظلال القرآن، قطب (٦٩٠/٢).

٢- أن لا يجدوا ضيقاً وشكاً فيما يحكم به، بأن تدعن نفوسهم لقضائه وحكمه، مع الرضا التام والقبول المطلق.

٣- الانقياد والتسليم الكلي للحكم في الظاهر والباطن، من غير ممانعة ولا منازعة، قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده»^(١).

وكل ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

وتبين السورة أن من عمل بما أمره الله تعالى ورسوله ﷺ، وترك ما نهاه عنه، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقاً لأصحاب الدرجات العليا، وهم صفوة الله من عباده، الأنبياء والصديقون والشهداء، ثم عموم المؤمنين، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلا نيتهم: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ ﴿٦٩﴾ [النساء: ٦٩].

ثم تنتقل الآيات، لتخبر أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى، ومعصيته من معصية الله تعالى، لأنه المبلغ عن الله تعالى، فليست الطاعة له بالذات، ولكنها مستمدة ممن يبلغ عنه وهو الله ﷻ.

وهو المعنى الذي جاء في الآية الكريمة: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ ﴿٨٠﴾ [النساء: ٨٠].

(١) البخاري في الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، (١/١٢)، رقم (١٤).

ثم تقرر آيات سورة النساء أن معاداة الرسول ﷺ، ومخالفته، وترك الإسلام أو الردة عنه، ومخالفة طريق المسلمين، تحجب عن مرتكبيها عناية الله ورعايته، وتجعله يتخبط في دياجير الظلام والضلال، وتجعله مقوداً بنفسه وهواه، وتوجب له الدخول في نار جهنم وساءت مصيراً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ١١٥).

المطلب العاشر - أحكام الصلاة في سورة النساء^(١):

أ - صلاة الخوف:

نبه الله ﷻ في (سورة النساء) المجاهدين في سبيله إلى ناحية من شأنها أن تقوي الروح المعنوية فيهم، ألا وهي الالتجاء إلى الله تعالى، والاتصال به عن طريق القيام بأحب واجب ديني إليه تعالى وهو الصلاة، ورخص لهم فيهم كيفية خاصة لا تباح في غير السفر والحرب، وأمرهم بالجمع بين الصلاة وبين أخذ الأسلحة والحذر، وهكذا يشعر المجاهدون أنهم في جميع حالاتهم عباد الله ﷻ، يجاهدون في سبيله، ويهدون بأمره، ويؤدون واجبه، لا يلهمهم شأن عن شأن، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (١١٠) وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا

(١) انظر زاد المسير، ابن الجوزي (١٩٣/٢) وروح المعاني، الألوسي (١٣١/٥). وفي

ظلال القرآن، قطب (٧٤٨/٢).

مَعَكُمْ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمَّتِغَتَكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾ [النساء: ١٠١-١٠٢].

وإن في تكليف المؤمنين بالصلاة وقت الحرب والاشتغال بقتال الأعداء، وفي حالة ترقب الموت، دليل واضح على أهمية هذا الواجب في تركية النفوس، وفي الحصول على رضا الله تعالى.

ب- صلاة المسافر^(١):

دلت الآيات من (سورة النساء) على جواز قصر الصلاة للمسافر وقد قال الشافعي^(٢) رحمه الله: (القصر في غير الخوف بالسنة، وأما في الخوف مع السفر فبالقرآن والسنة، ومن صلى أربعاً فلا شيء عليه، ولا أحب لأحد أن يتم في السفر رغبة عن السنة). وقال يعلى بن أمية لعمر رضي الله عنهما:

ما لنا نقصر وقد أمنا؟ قال عمر رضي الله عنه: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال ﷺ: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»^(٣).

(١) انظر الجامع، القرطبي (٣٥١/٥) وما بعدها.

(٢) الشافعي: محمد بن إدريس بن شافع الهاشمي القرشي المطلبلي، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه ينسب المذهب الفقهي الشافعي ت (٢٠٤) — انظر تذكرة الحفاظ: (٣٢٩/١).

(٣) مسلم في صلاة المسافرين، باب صلاة المسافرين وقصرها، (٤٧٨/١)، رقم (٦٨٦).

ج- تحريم الصلاة حالة السكر^(١):

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

نهى الله تعالى في هذه السورة عبادة المؤمنين، أن يقربوا الصلاة في حالة السكر الذي لا يدري معه المصلي ما يقول، فكان الصحابة رضي الله عنهم قبل تحريم الخمر يمتنعون عن شرب المسكر إلى ما بعد صلاة العشاء، فإذا صلوا العشاء شربوا وكان هذا تمهيداً لتحريم السكر تحريماً باتاً في سورة المائدة، حيث يقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ^(٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ^(٩١) [المائدة: ٩٠-٩١].

ولما نزلت هذه الآية الكريمة قال الصحابة رضي الله عنهم: انتهينا ربنا^(٢).

المطلب الحادي عشر - التيمم:

ذكرت (سورة النساء) حكماً هاماً من أحكام الطهارة ألا وهو التيمم، وهو رخصة لأصحاب الأعذار، وقد بينت السورة أسباباً أربعة للتيمم وهي: المرض والسفر والحدث وملامسة النساء.

فالمريض يتيمم إن كان يؤذيه الماء، والمسافر وصاحب الحدث والجنابة يتيمم إن لم يجد الماء، وذلك كما وضّحت الآية من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَّرْهُنَ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً

(١) انظر جامع البيان، ابن جرير الطبري النساء (٤٣) موسوعة التفسير.

(٢) أحمد، باب مسند أبي هريرة رضي الله عنه، (٣٥١/٢)، رقم (٨٦٠٥).

فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾
[النساء: ٤٣].

المطلب الثاني عشر - مصادر التشريع الإسلامي^(١):

تذكر (سورة النساء) مصادر التشريع التي يجب أن يرجع إليها المسلمون في تصرفاتهم وأحكامهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].
فالأحكام لا تخرج عن أحد الأوجه التالية:

أ- منصوصة في كتاب أو سنة.

والسنة: ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

ب- مجمع عليها من أهل الحل والعقد من الأمة، بعد استنادهم إلى دليل شرعي اعتمدوا عليه: ﴿وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

ج- غير منصوصة ولا مجمع عليها، وهذه سبيلها الاجتهاد والقياس، وهو عرض المسائل المتنازع فيها على القواعد العامة في الكتاب والسنة،

﴿فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

وأما المصادر التبعية الأخرى، كالاستحسان الذي يقول به الحنفية، والمصالح المرسلة التي يقول بها المالكية، والاستصحاب الذي يقول به الشافعية، فهي في الحقيقة راجعة إلى المصادر الأربعة الأصلية.

(١) انظر التفسير المنير، زحيلي (١٢٣/٥)، وأصول الفقه، وهبة الزحيلي (١٢) وما بعدها.

المطلب الثالث عشر - ضلالت أهل الكتاب^(١):

عرضت (سورة النساء) نوعاً من الحرب الفكرية التي تعلن على المسلمين، ابتغاء زلزلة إيمانهم، وصرفهم عن معتقداتهم، فتبين الكثير من فتن أهل الكتاب وأساليبهم في صرف المؤمنين عن حق الله وهدايته، فعرض أولاً عنت اليهود مع رسول الله ﷺ فقد تركوا أحكام دينهم، وحرفوا كتابهم، واشتروا الضلالة بالهدى، ثم هم يخاطبون رسول الله ﷺ فيقولون: سمعنا قولك وعصينا أمرك، ويدعون عليه -قاتلهم الله- ﴿وَأَسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ [النساء: ٤٦]، أي لا أسمعك الله، ويقولون ﴿وَرَاعِنَا﴾، وهي اسم فاعل من الرعونة أي الطيش والحمق، أو هي كلمة سب وطعن عندهم بدلاً من أن تستعمل بمعنى أنظرنا أو أمهلنا.

وقد فهمي الله المؤمنين عن استعمال هذه الكلمة فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤].

وقال تعالى في (سورة النساء) يصور هذه الأفعال المذكورة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ۝٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعْ وَأَنْظِرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٤-٤٦].

(١) انظر البحر المحيط، أبو حيان (٣/٣٨٦) ومفاتيح الغيب، الفخر الرازي (١١/٥) والجامع، القرطبي (٦/٦) وما بعدها.

ثم تعرضت السورة إلى طلبهم أن ينزل عليهم كتاب من السماء، ولكنها تخفف وقع ذلك كله على قلب رسول الله ﷺ بأن هذا شأنهم الذي فعله أسلافهم مع موسى عليه السلام، كما تعرض لموقفهم من مريم والمسيح عليهما السلام. وتذكر ما فعله أسلافهم الماضون من نقض المواثيق والكفر بآيات الله، وأكلهم الربا وأموال الناس بالباطل.

ثم تعرض لغلو النصارى في شأن المسيح وإساءتهم في حق الألوهية، وتعلن واقع الأمر في عيسى وأمه عليهما السلام. قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فِيمَا نَقَضَهُمْ مِّيثَقَهُمْ وَكُفِّرَهُم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَيُظْلَمُ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء: ١٥٣-١٦١].

وتتوجه السورة بالنداء إليهم بيا أهل الكتاب قال سبحانه: ﴿يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ
يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ
يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ
عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء: ١٧١-١٧٢].

وفي هذا النداء ما يدل على أهمية صلة المنادين بالوحي السماوي
والهداية الإلهية، حتى صاروا أهلاً لكتاب الله، وفيه تقرير الحق في الألوهية وما
للَّه تعالى من أوصاف الجلال والجمال، التي تأتي النبوة التي زعموها لبعض
رسله الكرام، وفيه دليل واضح على أن رسولاً يأتي بعد التوراة والإنجيل
مصدقاً لما فيهما من أصول الدين وأركان الهداية، مما يوضح أن إعراضهم عن
رسالة هذا الرسول غير ملائم لاتصافهم بأنهم أهل الكتاب، فالآيات تسجل
عليهم انحرافهم وعدم أهليتهم لهذا الانتساب وتناقضهم العجيب.

وكانت السورة قد ذكرت في سياقها بعضاً من أحوال هؤلاء المنحرفين،
الذين يمدحون أنفسهم، ويدعون ما ليس فيهم، فيقولون: نحن أبناء الله
وأحباءه، ونحن شعب الله المختار وأنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودات،
ولن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، ولكن الله رد دعواهم بأنه لا
قيمة لتزكيتهم أنفسهم، فإن التزكية تكون بالعمل الصالح، لا بالادعاء، والله
هو الذي يزكي من يشاء من عباده بتوقيفه للعمل الصالح وهدايته إلى العقيدة
الصحيحة، والآداب الفاضلة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ ۚ إِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبَتِ وَالْطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٤٩-٥٢].

المطلب الرابع عشر - عناية سورة النساء بالمجتمع^(١):

١- التكافل والتراحم:

ضمت (سورة النساء) أوامر كثيرة، تضمن للمجتمع حياة سعيدة من التكافل والتراحم بين أفرادها، فأمرت أولاً المجتمع أن يهتم بشؤون اليتامى وتربيتهم وتهذيب أخلاقهم، وذلك حتى لا يكون اليتامى عنصر فساد في المجتمع: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

كما أرشدت إلى أن المال الذي في يد بعض الأفراد، إنما هو قوام المجتمع ينتفعون به في المشروعات العامة، ويفرجون به أزماتهم وضائقهم الخاصة، عن طريق الزكاة والتعاون وتبادل المنافع، وهذا هو الوضع المالي في نظر الشريعة، فليس لأحد أن يقول: مالي وليس لأحد منه شيء فالمال مال الجميع، وينتفع به الجميع بالطريق التي شرعها الله في سد الحاجات ودفع الملمات، وهو ملك لصاحبه يتصرف به كما رسم الله وبين في كتابه، حتى إذا ما أحل بذلك فأسرف وبذر حجر عليه. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

(١) انظر جامع البيان، الطبري (النساء: ٥ و ٣٦) وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (النساء: ٥ و ٣٦).

٢- الإحسان:

حفزت (سورة النساء) النفوس نحو العمل بالأحكام التي بينتها عن طريق التوجيه إلى الإحسان العام، وإلى أن سعادة المؤمن ليست معقودة بالإحسان إلى أسرته وأقاربه فقط، بل باستصحاب معنى الإحسان في كل شيء: فأمرت بالإحسان في عبادة الله، وهي أصل الخير كله، ثم ذكرت الإحسان إلى الوالدين لأنهما عماد الأسرة، ثم يمتد الإحسان إلى الأقارب والجيران والأصحاب وإلى كل أرباب الحاجات، وبهذا ترتبط وحدات الأمة على أساس من الرحمة والتعاون في السراء والضراء.

قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وبذلك يتحقق التكافل والتراحم الذي افتتحت بتقريره السورة ولفنت النظر إليه، إذ قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفُؤا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

٣- الأمانة والعدل^(١):

أرشدت الآيات في السورة إلى أمرين لا تسلم أمة ولا تسعد إلا بمراعاتهما والحرص عليهما، لأنهما أساس الحكم الصالح وسبيل الحياة الطيبة،

(١) انظر محاسن التأويل، القاسمي (١٣٣١/٥) وتفسير القرآن، شلتوت (٢١٥) وإلى القرآن الكريم، شلتوت (٤٩).

وهما: أداء الأمانات إلى أهلها، والعدل في الحكم بين الناس يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

والأمانة تتناول كل ما يؤتمن عليه الإنسان، سواء أكان ذلك في حق نفسه أو في حق غيره من العباد، أو في حق ربه.

فرعاية الأمانة في حقوق الله: امتثال أوامره واجتناب نواهيه، واستعمال أعضاء الإنسان ومشاعره فيما يقربه من ربه، والأمانة في الوضوء والصلاة والزكاة والصوم والكيل والوزن والودائع.

ورعاية الأمانة في حق النفس: ألا يفعل الإنسان إلا ما ينفعه في الدين والدنيا والآخرة، وألا يقدم على عمل يضره في آخرته أو دنياه، ويتوخى أسباب المرض ويعمل بقواعد علم الصحة.

قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»^(١).

ورعاية الأمانة في حق الآخرين: رد الودائع والعواري، وعدم الغش في المعاملات، والجهد والتضحية، وعدم إفشاء أسرار الناس وغيوبهم.

والأمانة في العلم: أن يؤديه الإنسان على وجهه الصحيح.

والأمانة في المشورة: أن يبدي الإنسان رأيه لمن يحتاج إليه دون غش أو خداع.

وقد ذكر رسول الله ﷺ الأمانة في أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان»^(٢).

(١) البخاري في الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، (٥/٢)، رقم (٨٥٣).

(٢) البخاري في الإيمان، باب علامة المنافق، (١٦/١)، رقم (٣٣).

وقال رسول الله ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»^(١).

أما العدل في الأحكام فيرجع إلى تحري الحق بوسائله، والبعد عن الهوى والشهوة، حتى يأخذ الضعيف حقه، ولا يبغي عليه القوي.

وقد خاطب الله تعالى رسوله الكريم ﷺ أن يقضي بين الناس بالحق والعدل دون محاباة أحد، ولا إلحاق ظلم بأحد، ولو كان غير مسلم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٠٥) **إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ** ﴿١٠٦﴾ [الأنبياء: ١٠٥-١٠٦].

وفي ذلك الخطاب زيادة تأكيد لجميع الأمة أن يتحروا الحق والعدل في أحكامهم، فإن كان النبي ﷺ قد أمر بهذا فمن باب أولى أن يؤمر كل من بعده بطلب الحق وإقامة العدل في الحكم بين الناس، وفي ذلك يقول ﷺ: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار»^(٢).

وقد أمر الله تعالى المؤمنين أن يقوموا بالعدل، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، في كل المجالات التي يمكن للإنسان أن يطبق فيها العدل، فالحاكم يعدل بين أفراد رعيته، والقاضي في أحكامه، والموظف بين أصحاب الحوائج عنده، والرجل في أهل بيته، كما أمرت الآيات أن يشهد الإنسان بالحق، ولو كانت هذه الشهادة على نفسه، أو والديه أو أحد أقربائه، وذلك من تمام العدل والحق.

(١) البخاري في الأحكام، باب موعظة الإمام للخصوم، (٤/١٧١)، رقم (٦٤٨).

(٢) الترمذي في البيوع، باب ما جاء في النهي للمسلم أن يدفع إلى الذمي الخمر،

(٣/٥٦٤)، رقم (١١٨٥).

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا قَوْمِينَ بِأَلْقَسِطٍ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ
 أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوَّلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا
 الْهَوَىَٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾
 [النساء: ١٣٥].

٤- النجوى التي فيها رضاء الله تعالى^(١):

إن النفوس مجبولة على إظهار الخير والتحدث به على الملاء علانية،
 ومجبولة على محبة إخفاء الشر وكتمانه، فأشارت (سورة النساء) إلى أن الكثير
 من كلام الناس هو مما لا خير فيه، إذ لا تكون المناجاة والكلام بين الناس
 خيراً إلا إذا كانت في أحد أمور ثلاثة بينها الآية الكريمة: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ
 مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ
 ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وهذه الأمور هي:

- ١- الأمر بالصدقة لإعانة المحتاج ومواساة الفقير والمسكين.
- ٢- الأمر بالمعروف: وهو ما تعارف عليه الشرع من كل ما فيه مصلحة
 عامة أو خير عام.
- ٣- الإصلاح بين الناس في خصوماتهم ومنازعاتهم، وقد جعلها رسول الله
 ﷺ أفضل من نوافل كثيرة يقوم بها الإنسان، فقال ﷺ: «ألا أخبركم
 بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة، قالوا: بلى، قال ﷺ: صلاح
 ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة»^(٢).

(١) انظر مفاتيح الغيب، الرازي (٣٣/١١).

(٢) الترمذي في صفة القيامة والرقائق، (٤/٣٦٤)، رقم (٢٤٣٣).

وقد جعل الله تعالى النجوى مظنة الإثم والشر غالباً، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَنِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالنَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩].
وقال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث، فإن ذلك يخرجه»^(١).

٥- تحية الإسلام وردها:

تعلمنا آيات (سورة النساء) التحية وآدابها، والتحية هي الدعاء بالحياة، فإذا سلم المسلم على أخيه المسلم بتحية الإسلام: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، فهو يدعو له بالحياة الطيبة، التي يسودها السلام والود والمحبة، وهنا يجب على الإنسان أن يرد التحية بأفضل ما عنده، ويندب له أن يزيد على التحية ما كان أفضل منها من الدعاء بالخير للمسلم، والأولى أن يكون الرد ببشاشة وسرور وحسن استقبال.

وإن السلام بين المسلمين مما يزيد أواصر المحبة والوئام، ويشعرهم بالطمأنينة، لأن السلام اسم من أسماء الله تعالى، وهو يعني السلم والسلام والأمن والأمان.

قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنون حتى تحابوا، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم»^(٢).

(١) الترمذي في الأدب، باب ما جاء لا يتناجى اثنان دون ثالث، (١٢٨/٥)، رقم (٢٧٥١).

(٢) الترمذي في صفة القيامة، باب سوء ذات البين، (٦٥٢/٤)، رقم (٢٥١٢).

المطلب الخامس عشر - المنافقون في سورة النساء^(١):

تحدث سورة النساء عن المنافقين وبينت جملة من صفاتهم، ومن هذه الصفات:

١ - الاحتكام إلى الطاغوت:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۖ﴾ (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۖ﴾ [النساء: ٦٠-٦١].

تبين الآيات جماعة من المنافقين، يدعون الإيمان بما أنزل الله على رسوله ﷺ وعلى الأنبياء الأقدمين، ولكنهم لا يقبلون أن يتحاكموا إلى رسول الله ﷺ في خصوماتهم.

وإن كل من يعدل عن كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، إلى ما سواهما من الباطل وهو الطاغوت متعمداً ذلك، فهو منافق بلا شك وإن أظهر الإيمان.

٢ - التثاقل عن الجهاد:

إن من هؤلاء المنافقين من يتثاقل عن تلبية دعوة الجهاد، ويشبطون همم غيرهم وتفرح قلوبهم إذا وقعت الهزيمة على المسلمين، ويحمدون الله على تثاقلهم وتخلفهم عن القتال، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لُيَبَطَّنَ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ۖ﴾ [النساء: ٧٢].

(١) انظر الجامع، القرطبي (٢٨٨/٥) وإرشاد العقل السليم، أبو السعود (٢٠٠/٢).

إنهم يربطون إقدامهم وإحجامهم بالنتائج المادية للقتال ويجعلونها أكبر همهم، وليس لهم من الإيمان القلبي ما يدفعهم إلى التضحية في سبيل الله ونصرة دينه.

٣- النكوص عن القتال:

ومنهم من ينكص على عقبيه عن القتال عندما يكتب عليه بعد أن كانوا يتطلعون إليه ويستعجلونه. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْفِتْنَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧].

٤- يبيتون غير ما يظهرون:

ومن هؤلاء الذين يظهرون الطاعة والامتثال عند سماع الأمر بالقتال والدعوة إليه، ثم إذا خرجوا بيتوا غير الذي يظهرون من العزم على المخالفة والنكوص عن الدعوة، قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

٥- المرجفون:

ومنهم الذين تعودوا نشر الشائعات غير مقدرين لنتائجها، وقد كان لإذاعة خبر موت النبي ﷺ في غزوة أحد أبلغ الآثار السلبية في قوة الجيش المعنوية، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء: ٨٣].

وقال الله ﷻ: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْمُنتَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [٦٠-٦١].

٦- كفرهم المحتم:

قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (٨٨) ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٨٩) [النساء: ٨٨-٨٩].

في هذه الآيات يخاطب الله تعالى المؤمنين، مستنكراً عليهم انقسامهم في شأن كفر المنافقين، مع قيام الأدلة عليه ويخبرهم تعالى أنهم كفارون بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول ﷺ، واتباعهم الباطل، ومعاداتهم المسلمين وبغضهم لهم والتآمر عليهم، وعدم هجرتهم إلى الله ورسوله، وما داموا كذلك فيجب على المؤمنين الحذر منهم ومن مكائدهم، وعدم اتخاذهم أنصاراً وأولياء.

٧- اتخاذهم الكافرين أولياء:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (١٣٧) ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣٨) ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُغُوتَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (١٣٩) ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْكُمْ إِذَا مَثَلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (١٤٠) [النساء: ١٣٧-١٤٠].

في الآيات تهديد ووعد للمنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء وأنصاراً وأعواناً، ويتجاوزون ولاية المؤمنين ويتركونها، ظناً منهم أن الغلبة

ستكون للكافرين، والعزة والمنعة لهم. ولكنهم أخطؤوا في اعتقادهم لأن العزة لله تعالى في الدنيا والآخرة، يؤتيها من يشاء وستكون في النهاية لأولياء الله الذين كتب لهم العزة والغلبة.

٨- ذبذبة المنافقين:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢﴾ مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿النساء: ١٤٢-١٤٣﴾.

تذكر الآيات بعضاً مما يميز المنافقين، فهم من جهلهم وقلة علمهم يظهرون الإيمان ويطنون الكفر ويطنون أنهم يخادعون الله، ولكن الله تعالى لا يخدع، لأنه علام الغيوب، وسيجازيهم على صنيعهم.

وهم يتميزون أيضاً بأنهم يقومون إلى الصلاة متباطئين متثاقلين، فلا إيمان يدفعهم، ولا نية لهم فيها، ولا يعقلون معناها، لذلك يقومون إليها تظاهراً فقط دون تحقيق أي معنى من معانيها.

ثم هم بالتالي مذذبون مضطربون متحIRON بين الإيمان والكفر، لا هم مع المؤمنين ولا هم مع الكافرين، لذلك فقد هددهم الله بعقاب يليق بكفرهم. فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

المطلب السادس عشر - عناية سورة النساء بشؤون الدولة والجهاد^(١):

أرشدت الآيات في (سورة النساء) إلى ما يجب على الأمة في سبيل المحافظة على وجودها من اتخاذ الحيلة والحذر من الأعداء بإعداد الأسلحة والجيش المقاتل، وترسم السورة سياسة الحرب وتضع قواعد القتال المؤدية إلى النصر والفوز المبين.

ولا يصح للمؤمن أن يخشى اقتحام المعارك لأن أجل الإنسان لا يتأخر ساعة ولا يتقدم، وعلى المؤمنين اتخاذ ما يمكنهم من أسباب القوة غير محتجين بقدر، ولا يائسين من حدوث نكسة.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثَبَاتٍ أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا ۖ﴾ (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيَبْطُلَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ۖ﴾ (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ۖ﴾ (٧٣) ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ﴾ (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ۖ﴾ (٧٥) الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۖ﴾ [النساء: ٧١-٧٦].

كما تأمر الآيات أفراد الأمة أن ينهضوا جميعاً ويكونوا متعاضدين وعلى استعداد دائم للجهاد، فيقول تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا

(١) انظر محاسن التأويل، القاسمي (١٣٩٢/٥) والجامع، القرطبي (٣٣٦/٥).

تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ [النساء: ١٠٤].

وذلك كقوله تعالى في الأنفال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ [الأنفال: ٦٠].

وخاطبت السورة رسول الله محمدًا ﷺ تأمره بالقتال بنفسه وترك من نكل عنه ورفض القتال.

فسواء أفردوه وحده في القتال أو أعانوه فإن الله ناصره، ومتكفل بحفظه ونصره وما عليه إلا أن يحرضهم على القتال دون تعنيف.

قال تعالى: ﴿فَقَنْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ ﴿٨٤﴾ [النساء: ٨٤].

ثم أمرت الآيات المسلمين بالتثبيت في جهاد الأعداء حينما يشتبه عليهم المسلم وغير المسلم أو المسالم والمحارب فليتمهلوا في الحكم عليه وليتبينوا حقيقة أمره، ولا يتعجلوا بقتله، فإنهم مأمورون بالعمل بالظاهر، والله أعلم بالسرائر، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿٩٤﴾ [النساء: ٩٤].

المطلب السابع عشر - القتل وجزاؤه^(١):

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانِ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانِ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ٩٣﴾ [النساء: ٩٢-٩٣].

تبين الآيات أنه لا ينبغي للمؤمن أن يقتل مؤمناً بأي وجه، إلا أن يكون القتل خطأ، أي عن غير قصد لإزهاق الروح لأن القتل جريمة شنيعة، وكبيرة من الكبائر، ويجب أن يكون هناك سبب وجيه معتبر شرعاً للقتل كما بين رسول الله ﷺ في قوله: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة»^(٢).

وقال ﷺ: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم»^(٣).

وإن هذا القتل إن حصل فقد فرض الله له عقوبة، وهي أمران:

الأول: تحرير رقبة مؤمنة أي عتق نفس مملوكة.

الثاني: دية تدفع إلى أهل القتيل عوضاً عما فاتهم من قتيلهم.

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (النساء ٩٢-٩٣) موسوعة التفسير.

(٢) البخاري في الديات، باب قوله تعالى (النفس بالنفس) (٢٠٩/١٢)، رقم (٦٤٨٤).

(٣) الترمذي في الديات، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن، (١٦/٤)، رقم (١٣٤٥).

فإن كان هذا القاتل لا يملك الرقبة ولا ثمنها، شرع الله له أمراً آخر بديلاً وهو صيام شهرين متتابعين، توبة من الله وتطهيراً لنفسه كي تطيب ولا يأخذه التأثم مما فعل.

أما القاتل عمداً فقد بينت السورة أن جزاءه الخلود في جهنم، والوقوع في غضب الله عليه، هذا إن لم يتب على رأي الجمهور أما إن تاب فإنه تقبل توبته بإذن الله، لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

والآية عامة في جميع الذنوب. ولقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

المطلب الثامن عشر - الهجرة في سبيل الله^(١):

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَ بَيْنَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٩٧ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨ قَالُوا لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَغْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا ۝٩٩ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٧-١٠٠].

هذه الآيات تويخ للمتقاعسين عن الهجرة، إذا كان ذلك بمكنتهم وقدرتهم، وفيها عذر لغير القادرين من الرجال المرضى، والنساء الضعيفات والولدان، الذين لا يملكون القدرة على الهجرة في سبيل الله.

(١) انظر الجامع، القرطبي (٣٤٧/٥) وما بعدها.

فعلى الإنسان أن يهجر أرض المعاصي، وينتقل إلى ديار تقام فيها شعائر الإسلام، لا كما يفعل بعض المسلمين اليوم، إذ يتركون بلاد الإسلام ويهاجرون إلى ديار الكفر، بحجة طلب الرزق والمعاش، رغم أن ذلك متاح لهم في البلاد الإسلامية، ثم يقولون: ماذا نفعل؟ نحن مرغمون على عدم إقامة شعائر ديننا، ويجب علينا أن نتملق الكفار لنعيش!!! وما هكذا أمروا.. وما لهذه الذلة خلقوا.

وقد أوضح العلماء أن السفر ينقسم إلى قسمين:

الأول: الهرب، والثاني: الطلب.

أما الهرب فله ستة أسباب:

١- الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام: وكانت فرضاً في أيام النبي ﷺ، وهي باقية مفروضة إلى يوم القيامة.

أما الهجرة التي انقطعت بالفتح بقوله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»^(١) فهي القصد إلى النبي ﷺ حيث كان.

٢- الخروج من أرض البدعة لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

٣- الخروج عن أرض غلب عليها الحرام، لأن طلب الحلال فرض على كل مسلم.

٤- الفرار من الأذية في البدن، وأول من فعله إبراهيم عليه السلام فإنه لما خاف من قومه قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦]، كذلك فعله موسى عليه السلام فقال تعالى مخبراً عنه: ﴿فَرَجَّ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١].

(١) البخاري في المغازي، باب مقام النبي ﷺ بمكة، (٢٠/٨)، رقم (٢٦٣١).

٥- خوف المرض في البلاد التي يكثر فيها التلوث البيئي والأوبئة سريعة الانتشار.

٦- خوف الأذية في المال.

وأما **الطلب** فله تسعة أسباب:

١- سفر العبرة، لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ

عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩]

٢- سفر الحج، وهو فرض على المستطيع لقوله ﷺ في حديث أركان الإسلام «وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»^(١).

٣- سفر الجهاد.

٤- سفر المعاش، فقد يتعذر على المرء معاشه مع الإقامة، فيخرج في طلبه، شرط أن يكون في بلاد يأمن فيها على نفسه وماله ودينه.

٥- سفر التجارة والكسب الزائد على القوت، وذلك جائز لقوله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة:

١٩٨]. أي التجارة، وهي نعمة من الله بها في سفر الحج، فمن باب أولى أنها جائزة إذا انفردت.

٦- السفر في طلب العلم.

٧- السفر بقصد زيارة الأماكن المقدسة التي يندب للإنسان السفر إليها،

لقوله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام ومسجد الأقصى ومسجدي»^(٢).

٨- الثغور للرباط بها وتكثر سواها والدفاع عنها.

(١) مسلم في الإيمان، باب وصف جبريل للنبي ﷺ الإسلام والإيمان، (٢٩/١)، رقم (٨).

(٢) البخاري في التطوع، باب مسجد بيت المقدس، (٦١/٢)، رقم (١١٩٨).

٩- زيارة الإخوان في الله تعالى لقوله ﷺ: «زار رجل أخاً له في قرية، فأرصد الله له ملكاً على مدرجته، فقال: أين تريد؟ قال: أخاً لي في هذه القرية. قال: هل له عليك من نعمة تربّها؟ قال: لا إلا أني أحبه في الله، قال: فإني رسول الله إليك إن الله أحبك كما أحبته فيه»^(١).

المطلب التاسع عشر - الشيطان ومكائده^(٢):

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝١١٦﴾ إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ۝١١٧ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۝١١٨ وَلَا أَضِلَّهُمْ وَلَا هُمْ يَعْلَمُونَ وَلَا تُغْوِيَهُمْ وَلَا تُغَيِّرُ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ۝١١٩ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢٠ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ۝١٢١﴾ [النساء: ١١٦-١٢١].

كانت العرب في الجاهلية تزعم أن الملائكة بنات الله، ويتخذون لهذه الملائكة تماثيل يسمونها بأسماء الإناث (اللات، العزى، مناة) ثم يعبدون هذه الأصنام، يتقربون بها إلى الله زلفى، وكان بعضهم يعبد الشيطان صراحة. وهذه الآيات تبين أن المشركين بأي نوع من الشرك، إنما هم يدعون الشيطان ويستمدون منه.

ذلك الشيطان الذي لعنه الله بسبب معصيته، فصار عدواً للبشر، وصرح بنيته في إضلال فريق من أبناء آدم، ووعدهم بالوعود والأمنيات الكاذبة،

(١) مسلم في البر والصلة، باب فضل الحب في الله، (١٢/٨)، رقم (٢٥٦٧).

(٢) انظر في ظلال القرآن، قطب (٧٦/٢).

ودفعهم إلى أفعال قبيحة، من تمزيق آذان الأنعام، وتغيير خلق الله، كما يفعل دعاة الفتنة اليوم، الذين ينادون بنداء الشيطان، ويأتمرون بأوامر الشيطان، من وشم في الوجه ونحوه وتغيير حجم الشفاه أو الأنف، أو العمليات التجميلية في مختلف أنحاء الجسم، التي لا تدعو إليها إلا الرغبة في شكل أجمل، لا الحاجات المرضية، ولا يعلمون أن الله عز وجل قد خلق الإنسان في أحسن تقويم، وصوره فأحسن تصويره، واختار لكل إنسان أفضل ما يناسبه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿٤﴾ [التين: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦٤﴾ [غافر: ٦٤].

وقد ثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله عز وجل، فقالت امرأة: ما هذا؟ فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ومالي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي كتاب الله، قالت: والله لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدته، فقال: والله لئن قرأته لقد وجدته: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]^(١).

فالشيطان يعد أوليائه بالباطل، ويمنيهم بما هو كاذب، فيزين لهم النفع في ما يضرهم، ولكنهم ليسوا معذورين بإطاعته والسير خلفه وهو إمامهم، لقد أوعدهم الله عز وجل عذاباً شديداً في جهنم، ولا يستطيعون أن يجدوا لهم مخرجاً منه.

(١) البخاري في اللباس، باب المتنمصات، (٣١٤/١٠)، رقم (٥٦٠٧).

المطلب العشرون - الكفر بالله تعالى وعقوبته:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝١٥١﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

ويقول عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ۝١٦٧ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَعْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝١٦٩ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَقَامُوا خَيْرًا لَكُمْ ۝١٧٠ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧١﴾ [النساء: ١٦٧-١٧٠].

تبين الآيات في (سورة النساء) بعضاً من صفات الكافرين، وتذكر أنهم بكفرهم بالله وبرسوله وبالقرآن الكريم قد ابتعدوا عن الحق والصواب، ولم يكتفوا بامتناعهم عن الإيمان وكفرهم، بل صدوا الناس عن الإيمان، وكانوا دعاة سوء لكفرهم، مزينين للناس طريق الغواية والضلال ليضلوهم معهم.

كما تذكر الآيات عقاب هؤلاء الكافرين، وهو الخلود في نار جهنم، في عذاب مهين أليم، لا يجدون منه مخرجاً.

إن دعوة الإسلام هي دعوة الحق التي يجب أن يتبعها الناس جميعاً، إنها دعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإعراض عما سواه، وهذا ما تتقبله كل العقول السليمة، وترفض كل ما سواه.

المطلب الواحد والعشرون - الدين الواحد^(١):

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۖ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۖ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۖ﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥].

تحدثت الآيات في (سورة النساء)، عن الوحي الذي أوحاه الله تعالى إلى أنبيائه، وبينت أنه جنس واحد، ووحي واحد نزل على جميع الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله تعالى للبشرية، وعلى الإنسان المسلم أن يصدق بجميع الأنبياء ويؤمن بهم، وبما أنزل عليهم من كتب سماوية.

كما دلت الآيات أن من الأنبياء عدداً قد ذكرت أسماءهم في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۖ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ۖ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا ۖ كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۖ﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٦].

والأنبياء المذكورين في القرآن الكريم خمسة وعشرون نبياً عليهم الصلاة والسلام، وهناك رسل آخرون لم يرد ذكر أسمائهم في القرآن الكريم، لحكمة

(١) انظر التفسير المنير، زحيلي (٣٠/٦) وما بعدها.

أَرَادَهَا اللَّهُ تَعَالَى. قَالَ ﷺ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

والقصد من إيراد قصص الأنبياء العظة والذكرى، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ [يوسف: ١١١].
وفي تلك القصص تثبيت لقلب رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

وبينت الآيات أن مهمة الأنبياء والرسل جميعاً هي مهمة واحدة على اختلاف العصور ومر الدهور وهي أنهم يبشرون من أطاع الله تعالى واتبع رضوانه بالخيرات، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب. والحكمة من إرسال الأنبياء والمرسلين هداية الناس جميعاً إلى الحق والخير والصراط المستقيم، لئلا يكون على الله للناس حجة بعد الرسل.

خاتمة السورة

ختمت السورة الكريمة ببيان ضلال النصارى بشأن المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام، حيث غالوا فيه وفي أمه، حتى عبدوهما من دون الله، وتبنوا فكرة التثليث فأصبحوا وثنيين مشركين، وقد دعتهم الآيات إلى الرجوع إلى العقيدة السمحة الصافية عقيدة التوحيد قال الله تعالى: ﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ

وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً ^ع أَنْتَهُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴿النساء: ١٧١﴾.

ثم انتقلت إلى دعوة الناس جميعهم، بأنه قد جاءهم من الله برهان ساطع، ودليل قاطع يبين لهم حقيقة الإيمان بالله تعالى، ويرسم لهم أنظمة المجتمع الصالحة لحياة أفضل، هذا البرهان هو محمد ﷺ الذي نشأ بينهم في الجاهلية، ولكنه لم يتأثر بمفاسدها وأدراكها، وإنما تعهده الله تعالى بالتربية والعناية والإعداد لحمل الرسالة، وأنزل عليه القرآن الكريم الذي جاء لتصحيح العقيدة والنظام، فقرر التوحيد الخالص وحارب الوثنية والشرك، وأبان زيف اليهودية والنصرانية، وأرسى معالم الهداية وأوضح طريق العبادة الصحيحة لله تعالى، ووضع أسس الأخلاق وأنظمة الحياة الرشيدة في السياسة والحرب والسلام والاقتصاد والاجتماع، فكان ذلك بالإضافة إلى السيرة الذاتية للنبي ﷺ برهاناً على كون هذا الدين هو الدين الحق الذي لا معدل عنه ولا مثيل له قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥].



الفهرس

المقدمة	٣
الفصل الأول: سورة الحجرات (تعريف عام)	٧
المبحث الأول: مقدمة عامة عن السورة	٩
- تسمية السورة	٩
- نزول السورة	١٠
- مناسبة السورة لما قبلها	١٠
المبحث الثاني: موضوعات السورة ومقاصدها الأساسية	١٢
المطلب الأول: طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ	١٢
المطلب الثاني: الأدب مع رسول الله ﷺ	١٣
المطلب الثالث: التثبت من الأخبار	١٤
المطلب الرابع: الإصلاح بين الفئات المتخاصمة	١٥
المطلب الخامس: النهي عن السخرية واللمز	١٦
المطلب السادس: اجتناب سوء الظن بالمؤمنين	١٧
المطلب السابع: النهي عن التجسس	١٨
المطلب الثامن: التحذير من الغيبة	١٩
المطلب التاسع: التفاضل بالتقوى	٢١
المطلب العاشر: الإيمان الحقيقي	٢١
خاتمة السورة	٢٣
الفصل الثاني: سورة الحجرات بالتفصيل	٢٥
المبحث الأول: الأدب مع رسول الله ﷺ	٢٧
المطلب الأول: الشرح	٢٧
المطلب الثاني: سبب النزول	٢٨
المطلب الثالث: الإعراب	٢٨
المطلب الرابع: الفوائد	٢٩
اتباع الصحابة لرسول الله ﷺ	٣٠

نداء العباد لربهم عز وجل	٣٢
نداء الله تعالى لعباده	٣٣
المبحث الثاني: الأدب بالحديث مع رسول الله ﷺ	٣٦
المطلب الأول: الشرح	٣٦
المطلب الثاني: سبب النزول	٣٧
حدث بعد نزول الآية	٣٧
المطلب الثالث: الإعراب	٣٩
المطلب الرابع: الفوائد	٤٠
مواضع يستثنى فيها جواز رفع الصوت أمام رسول الله ﷺ	٤٠
المبحث الثالث: جزاء الأدب مع رسول الله ﷺ	٤٥
المطلب الأول: الشرح	٤٥
المطلب الثاني: الإعراب	٤٦
المطلب الثالث: الفوائد	٤٧
المبحث الرابع: لا يرفع الصوت مع رسول الله ﷺ إلا الذين لا يعقلون	٤٩
المطلب الأول: الشرح	٤٩
المطلب الثاني: سبب النزول	٥٠
المطلب الثالث: الإعراب	٥٠
المطلب الرابع: الفوائد	٥١
المبحث الخامس: خبر الفاسق	٥٤
المطلب الأول: الشرح	٥٤
المطلب الثاني: سبب النزول	٥٥
المطلب الثالث: الإعراب	٥٦
المطلب الرابع: الفوائد	٥٧
المبحث السادس: الإيمان نعمة من الله تعالى	٦٠
المطلب الأول: الشرح	٦٠
المطلب الثاني: الإعراب	٦٢

المطلب الثالث: الفوائد	٦٣
المبحث السابع: الإصلاح بين المؤمنين	٦٦
المطلب الأول: الشرح	٦٦
المطلب الثاني: سبب النزول	٦٧
المطلب الثالث: الإعراب	٦٧
المطلب الرابع: الفوائد	٦٩
- الفتنة بعد سيدنا عثمان رضي الله عنه	٧٢
المبحث الثامن: المؤمنون إخوة	٧٤
المطلب الأول: الشرح	٧٤
المطلب الثاني: الإعراب	٧٥
المطلب الثالث: الفوائد	٧٥
- حقوق الأخوة العامة	٧٨
المبحث التاسع: من الأخلاق الإيمانية (١)	٨٥
المطلب الأول: الشرح	٨٥
المطلب الثاني: سبب النزول	٨٩
المطلب الثالث: الإعراب	٩٠
المطلب الرابع: الفوائد	٩٢
المبحث العاشر: من الأخلاق الإيمانية (٢)	٩٩
المطلب الأول: الشرح	٩٩
المطلب الثاني: الإعراب	١٠٢
المطلب الثالث: الفوائد	١٠٣
- من آثار الغيبة على المغتاب	١١٤
- بعض أسباب ودوافع الغيبة والنميمة	١١٥
- ما يباح من الغيبة	١١٦
المبحث الحادي عشر: الكرم التقوى	١١٩
المطلب الأول: الشرح	١١٩

المطلب الثاني: الإعراب	١٢٢
المطلب الثالث: الفوائد	١٢٢
- التقوى	١٢٥
- أنواع التقوى	١٢٥
- مراتب التقوى	١٢٧
- فضائل التقوى	١٢٩
المبحث الثاني عشر: الإيمان والإسلام	١٣٢
المطلب الأول: الشرح	١٣٢
المطلب الثاني: الإعراب	١٣٥
المطلب الثالث: الفوائد	١٣٥
المبحث الثالث عشر: شروط تحقق الإيمان	١٣٧
المطلب الأول: الشرح	١٣٧
المطلب الثاني: الإعراب	١٣٨
المطلب الثالث: الفوائد	١٣٩
خاتمة السورة: الإسلام نعمة من الله تعالى	١٤٢
المطلب الأول: الشرح	١٤٢
المطلب الثاني: الإعراب	١٤٤
المطلب الثالث: الفوائد	١٤٥
- ملاحظة عامة عن أساليب العرض في سورة الحجرات	١٤٧
الفصل الثالث: مشاهد من يوم القيامة من سورة ق	١٤٩
المبحث الأول: علم الله تعالى وإحاطته بالإنسان	١٥١
المطلب الأول: الشرح	١٥١
المطلب الثاني: الفوائد	١٥٢
المبحث الثاني: رقيب وعتيد	١٥٣
المطلب الأول: الشرح	١٥٣
المطلب الثاني: الفوائد	١٥٤

المبحث الثالث: سكرة الموت	١٥٦
المطلب الأول: الشرح	١٥٦
المطلب الثاني: الفوائد	١٥٧
المبحث الرابع: سائق وشهيد	١٥٨
المطلب الأول: الشرح	١٥٨
المطلب الثاني: فوائد عامة من سورة (ق)	١٥٩
المطلب الثالث: تناسب خواتيم (الحجرات) مع فواتح (ق)	١٦٢
المطلب الرابع: تناسب فواتح (ق) مع خواتيمها	١٦٣
المطلب الخامس: تناسب خواتيم (ق) مع فواتح (الذاريات)	١٦٣
الفصل الرابع: سورة النساء	١٦٥
المبحث الأول: مقدمة عامة عن السورة	١٦٧
- تسمية السورة	١٦٧
- نزول السورة	١٦٨
- فضل السورة	١٦٨
- مناسبة السورة لما قبلها	١٦٩
المبحث الثاني: موضوعات السورة وأغراضها الأساسية	١٧٠
المطلب الأول: وحدة الأصل الإنساني	١٧٠
المطلب الثاني: أموال اليتامى	١٧٠
المطلب الثالث: الميراث	١٧٢
المطلب الرابع: عقوبة الزنا في أول الإسلام	١٧٣
المطلب الخامس: التوبة وشروطها في سورة النساء	١٧٥
المطلب السادس: المحرمات من النساء	١٧٧
المطلب السابع: النهي عن أكل أموال الناس بالباطل	١٨٠
المطلب الثامن: تنظيم العلاقات الزوجية	١٨١
- قوامة الرجل	١٨٣
- تعدد الزوجات	١٨٦

المطلب التاسع: طاعة الرسول ﷺ وعقوبة معاداته	١٨٨
المطلب العاشر: أحكام الصلاة في سورة النساء	١٩٠
- صلاة الخوف	١٩٠
- صلاة المسافرين	١٩١
- تحريم الصلاة في حالة السكر	١٩٢
المطلب الحادي عشر: التيمم	١٩٢
المطلب الثاني عشر: مصادر التشريع الإسلامي	١٩٣
المطلب الثالث عشر: ضلالات أهل الكتاب	١٩٤
المطلب الرابع عشر: عناية سورة النساء بالمجتمع	١٩٧
١- التكافل والتراحم	١٩٧
٢- الإحسان	١٩٨
٣- الأمانة والعدل	١٩٨
٤- النجوى التي فيها رضاء الله تعالى	٢٠١
٥- تحية الإسلام وردّها	٢٠٢
المطلب الخامس عشر: المنافقون في سورة النساء	٢٠٣
المطلب السادس عشر: عناية سورة النساء بشؤون الدولة والجهاد	٢٠٧
المطلب السابع عشر: القتل وجزاؤه	٢٠٩
المطلب الثامن عشر: الهجرة في سبيل الله	٢١٠
المطلب التاسع عشر: الشيطان ومكائده	٢١٣
المطلب العشرون: الكفر بالله تعالى وعقوبته	٢١٥
المطلب الحادي والعشرون: الدين الواحد	٢١٦
خاتمة السورة	٢١٧
- الفهرس	٢١٩

هذا الكتاب

مع كثرة الكتب وتنوعها، ومع ضيق الوقت وندرة الفراغ، لا بد من نظرة متأنية متفحصة في انتقاء الكتاب الأجود الذي يحوي فوائد جمة في وريقات معدودة.

وهذا ما دفع دار العصماء إلى اختيار هذا الكتاب الذي جمع الأسلوب السهل واللطيف، وفاض بالفوائد العميمة، فهو تفسير لبعض سور القرآن الكريم من وجهة نظر تربوية.

لاسيما أن المؤلف لها باع طويل في تربية الأجيال والدعوة إلى الله تعالى، مع ما تتميز به من سعة الفهم والإدراك لكتاب الله تعالى، وحسن التعبير عن معاني الآيات الكريمة، بما نستطيع القول أنها لم تُسبق إلى مثل هذا، وكتبها الكثيرة في هذا المجال شاهدة على ما نقول.

نسأل الله تعالى لنا ولها القبول والتوفيق وللقراء المتعة والانتفاع.